رحلة الحجاز

بقـــلم

ابرهيم عبد القادر المازنى

(طبـع فى مطبعة فؤاد بعطفة عبد الحق السنباطى رقم ٢٠)
بميدانـــ الأوبرا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

« إلى التي تفرح لفرحي وتحزن لحزني والتي أسيء إليها فتعفو وأرهقها فتحتمل، والتي لا تكون بدعي إلا راضية عني مباهية بي داعية لي

إلى أمي . . . »

إبرهيم عبد القادر المازني

جلالة الملك ابن السعود والأمير سعود ولى عهده ونائبه فى نجد
والأمير فيصل نائبه فى الحجاز

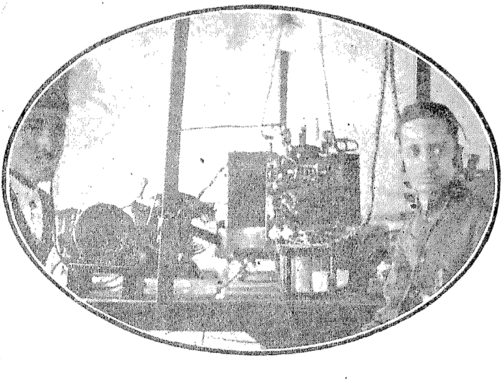

اللاسلكي في ينبع ويرى في الصورة عامل اللاسلكي وهو حجازي

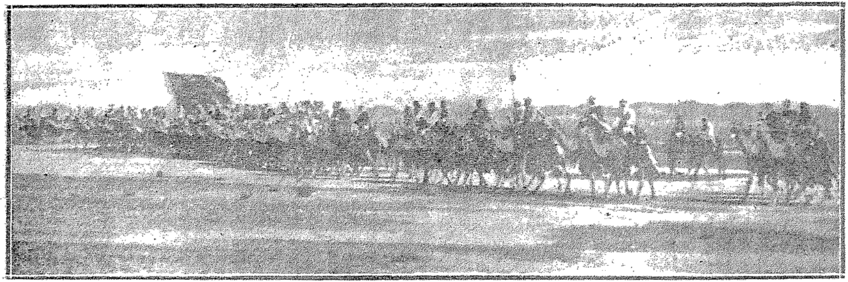

عرض الجيش فى الكندرة

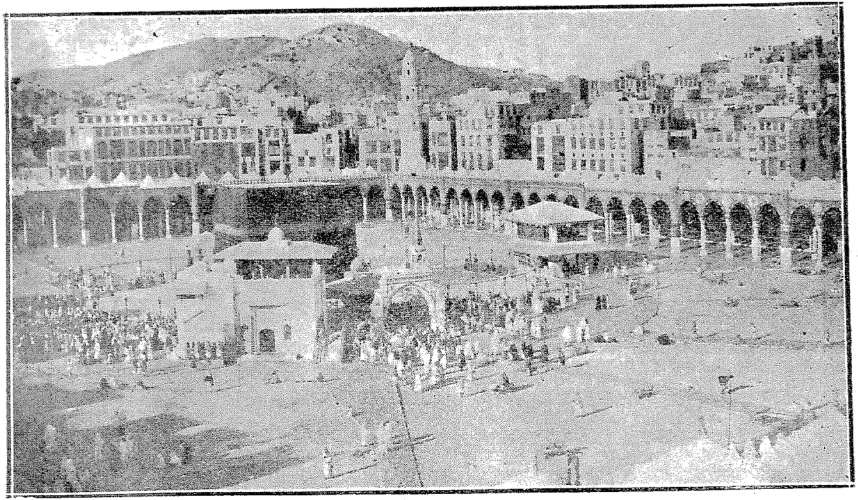

صورة للحرم الشريف وترى فيها الكعبة ومقام الخليل وبئر زمزم

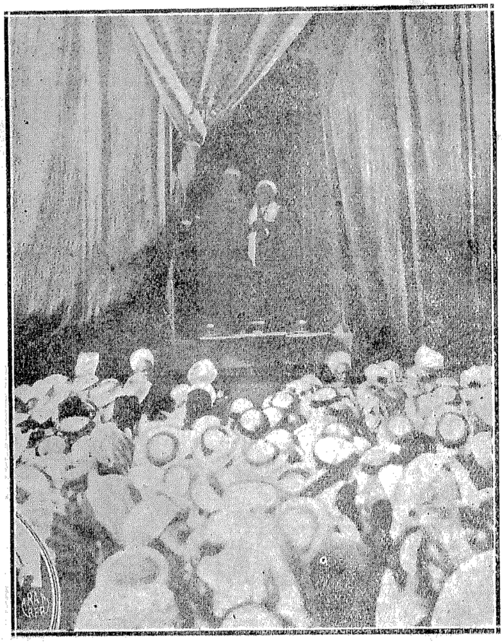

صورة لباب الكعبة ويرى سادنها فيه يدعو لجلالة الملك

فريق من الصحفيين فى ثياب الاحرام وهم الشاعر الزركلى ونبيه بك العظمة والسيد عبد الوهاب نائب الحرم والأستاذ محمود أبو الفتح والمؤلف وأمامهم ابراهيم افندى شاكر

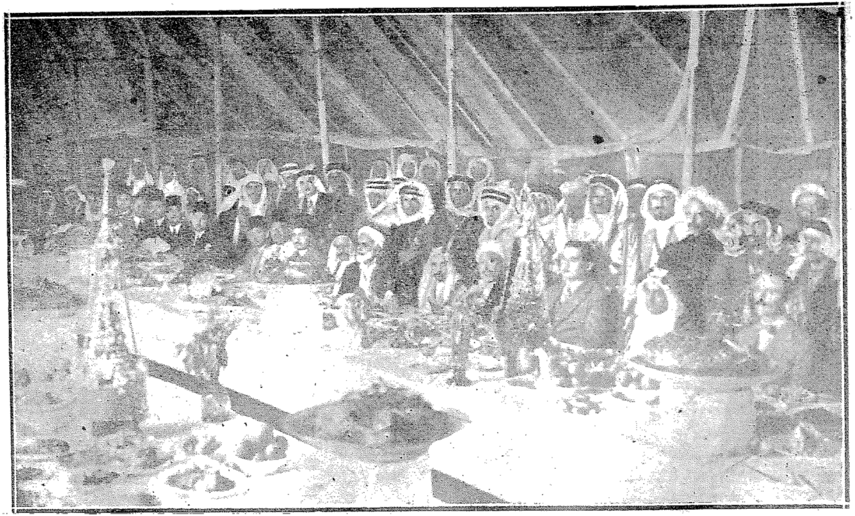

الموائد الافرنجية فى وادى فاطمة ويرى الأمير فيصل وعلى يمينه و يساره ممثلو انجلترا والروسيا

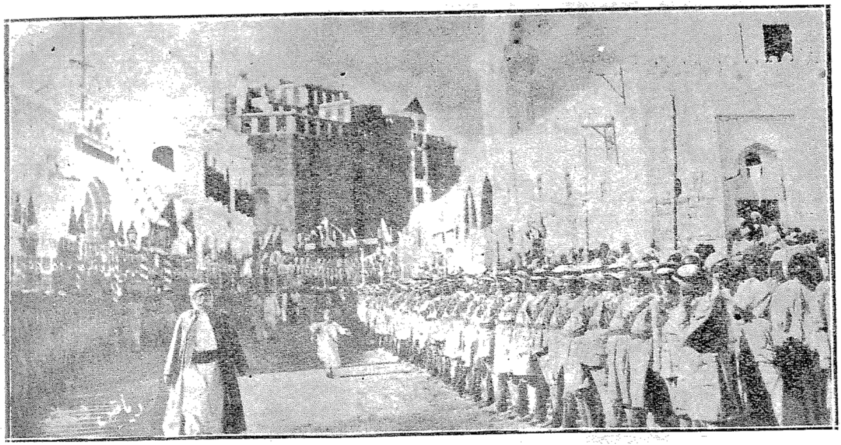

الجيش الحجازى مصطفاً فى الطريق الى باب الصفا ـ من أبواب الحرم ـ لمرور سمو الأمير فيصل

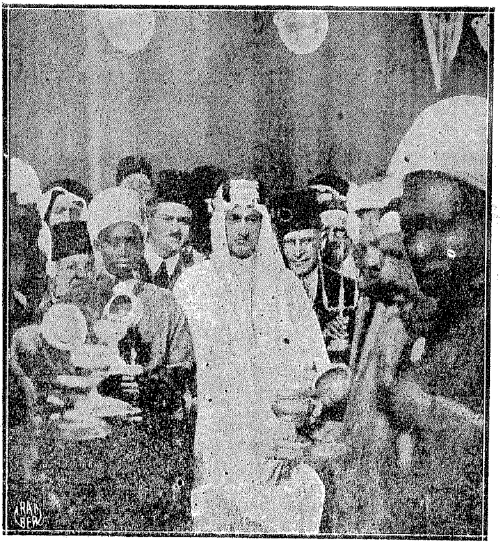

سمو الأمير فيصل سائراً فى الحرم الى باب الكعبة
وأمامه العبيد فى أيديهم المباخر ومندوبو الصحف المصرية حوله

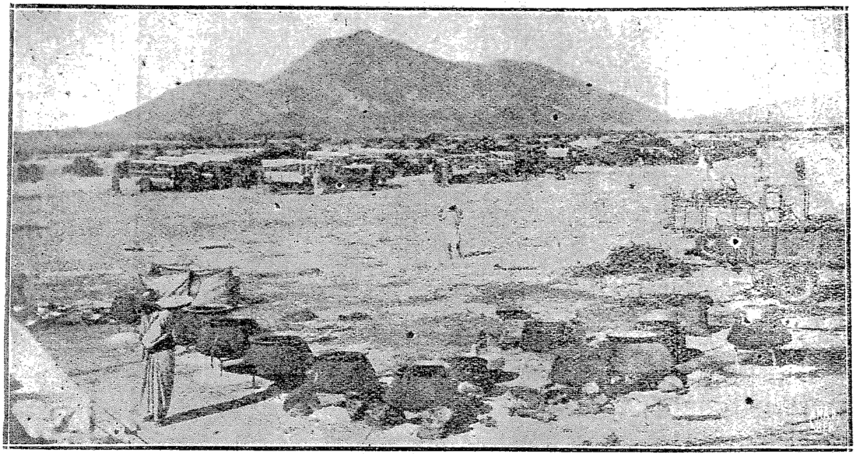

الأدوات التي استعملت لطهى الطعام فى وادى فاطمة

فى الطريق الى ينبع

رأيت نفسى أتساءل ـ وأنا أصافح ربان السفينة وأستفسر منه عن الجو وما ينتظر أن يكون ، والبحر وهل يرجى أن يكون ليناً ،

« ماذا يرجى لهذه الأمة العربية التى سنشهد بعد أيام احتفالها بمبايعة ملكها ؟ هل تكر على العالم بنهضة جديدة ؟ أودع الكر فقد تكون مسافة ما بينها و بين العالم أطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلا ، وسل هل فى وسعها أن تشق طريقها الى منزلة من منازل الحياة العزيزة ؟ »

ومن عجائب النفس الانسانية أنها تتسع لهذا الازدواج : هذا الربان أمامى أجاذبه أطراف الحديث وأنتقل معه من جد إلى هزل ، وأعرفه بهذا وذاك من إخوانى ، وتتسع حلقة الكلام وترحب دائرته وتكثر شعابه ، ويذهب هو يصف لى ميناءى ينبع وجده وكيف تكثر فى مدخليها الصخور ، وأنا منصت مرهف الآذان لكل حرف ، ولسانى يجرى بالكلام مجاوبا أو ملاحظاً أو مسائلا ، واذا بخاطر آخر يشغل من النفس الحيز الأكبر ويدور فيها ويأبى إلا أن أعنى به وألتفت اليه . ولعل

للقلب فى أثناء ذلك التفاتة أخرى الى الأهل والاخوان والى ماخلف المرء ووراءه من معاهد حياته ، وأغرب من هذا أن تكون الالتفاتة عمومها كالخصوص فهى لفتة شاملة محيطة ، ولكل شخص ولكل حادثة حظ نسبي من البروز ، ولكل ذكرى محلها ولكل عهد مكانه ، بلا بخس ولا وكس . على أن هذا ليس موضع الافاضة فى قدرة النفس على الاشتغال بأكثر من أمر واحد والانصراف الى كل شأن كأنها متخلية له ، فلنرجع الى ما كنا فيه . . . .

لم أجب على سؤالى وان كان التفكير فيه قد شغلنى طول الطريق ، لأن كل ما أعرفه عن العرب فى حاضرهم مستفاد مما قرأت أو سمعت ، ولم أر موجباً للتعجيل بالجزم وليس بينى وبين المعاينة إلا أيام . غير أن هذا لم يعفنى من إلحاح هذا الخاطر الذى ظلت النفس تواجهنى به وترفعه قبل عينى على صور شتى . فمرة يكون السؤال كما أوردته ، وتارة يكون « هل فى الأمة العربية مادة صالحة لما تتطلبه الحياة فى العصر الحاضر من الكفاح المر ؟

وطوراً يهتف الأمل « أن هذه الأمة تغالب طبيعة بلادها الماحقة وتصارع أهوال الصحراء فلم لا تستطيع أن تكافح المصاعب التى تحفها بها الأحوال العارضة ؟ » .

وربما جنحت النفس الى اليأس كلما تصورت بعد ما بين

العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة وتعذر اللحاق بهذه الشعوب التى أغذت السير قرونا وهم يحدون الابل و يقتتلون كما كانوا يفعلون فى الجاهلية . بل كان اليأس يخامرنى كلما تخيلت الصحراء الساحقة التى يصارعونها وكنت أقول لنفسى : « هل يتاح لأمة واحدة أن تنهض مرتين وأن يكون لهـا فى التاريخ مدنيتان عالميتان ؟ ألا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها و لاتبقى منها الا مايبقى من ألياف « القصب » الجافة بعد مصه أو اعتصاره ؟ »

وهكذا الى غير نهاية ! فما لقينا من البحر مايصرفنى عن التفكير أو يعدل بخواطر النفس الى مجرى آخر . ولقد كنا فى السفينة وكأننا فى بيوتنا لاعلى الماء ، وكانت السفينة تفرق البحر وكأنها لاتمسه فلا موج ولا اهتزاز ولا دوار ، حتى لقد اشتقت أن يطغى بنا قليلا ليردنا الى التهيب ، غير أن البحر خيب أملى فيه

وقد فرحت فى أول الأمر بالفرصة التى أتاحت لى هـذه الرحلة وقلت لنفسى إن المصريين يخرجون أفواجا الى الأقطار الأخرى وصار ذلك سنة مرعية عندهم ، حتى ليخيل للمرء فى مقدمة المصيف أن هذه الأمة المصرية قد أزمعت أن تهاجر الى واد غير واديها ، وكنت فى صيف كل عام أخشى أن لا يبقى فى البلاد غيرى ، وأن لا يعمرها سواى ، فلما عرضت هذه المناسبة

للسفر الى الحجاز فى الشتاء قات : حسن، دقة بدقة والبادى أظلم ، لقد عمرت الوادى من قبل فلتعمره الأمة الآن ، ولتقم عنى بواجب الحراسة التى أرانى كأنما كنت موكلا بها ، فما أحسب أحد أطاق أن يقيم كما أطقت ، كأنما كنت كلباً حارسا لا إنساناً له ديباجة تخلق ، وتستحق أن تتجدد .

وسرنى على الخصوص أن السفر الى الحجاز لا إلى الغرب ، ذلك أن الغرب يزور مصر ، ولو شئت لقلت انه يغزوها ، فلسنا نحتاج ان نزوره ، أما الحجاز فأمره مختلف جداً ، ولنحن خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربى أعمق وصلتنا به أوثق وارتباطنا به أمتن . وما أحسبنى أبالغ حين أقول إن مستقبل الشرق واحد وان تفاوتت خطى أبنائه : ومن الجهل أن نشيح بوجوهنا عنه ، ومن الخرق أن نتجاهله ومن البلادة أن ننسى أننا مرتبطون به وان خفيت الخيوط ، ومن الغفلة أن نتوهم أن الرحيل لا يكون نافعاً إلا الى الغرب ، وأنه لا فائدة تكتسب من زيارة الشرق والاطلاع على أحواله ..

وعرفت أسماء رفاقى فأطرقت أفكر : هذا احمد زكى باشا أحدهم وهو شيخ العروبة أولا أدرى ماذا يسمونه أو يسمى نفسه وهذا آخر من المجاهدين فى سورية ، وهذا ثالث كان له فى حركة

الاستقلال السورى دور هو أشبه بقصص السندباد البحرى «١»
فماذا عسى أن اكون بينهم ؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك ؟
هل فى مقدورى حين أفخر أن أدعى أنى اكثر من جندى صغير؟
ثم هؤلاء زملائى وليس بينهم إلا من هو أنشط منى وأجرأ .

واستعرت من زميل لى مبراة ، وملت الى الحاجز على ظهر السفينة وأرهفت أقلامى ، ثم لم أجد لى عملا بعد ذلك فأقمت حد المبراة على حديد الحاجز ورحت كأنى أقطع ، فسمعت قائلا يقول لى :

« رفقاً بالسفينة ياصديق ! أو بمبراتك اذا كان أمر السفينة لايعنيك ! » فالتفت فاذا انجليزى فى مثل ثياب الربان .

فقلت له :

« المبراة عارية وقد آن أن أردها »

فابتسم وقال :

« بعد أن شحذتها ؟ »

فسألته وأنا أشير الى رجل فى مقدمة الباخرة :

« من هذا الرجل ذو الوجه الأمرد والنظرة الوحشية ؟ » .

---

(١) هما نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى من المجاهدين فى القضية العربية .

فقال : « هذا الكبتن . . . لقد كان ضابطاً فى البحرية البريطانية وأبلى فى الحرب الكبرى بلاء حسناً ، وقد سرح وهو الآن يعمل فى هذه الباخرة »

فتركته ، وسرت خطوات فرأيت أمامى سلماً صعدت عليه فألفيت أمامى قوارب النجاة فدنوت من أولها ، وخطر لى أن أمتع نفسى بالجلوس فيه ، فشرعت أرفع رجلى لأخطو الى جوفه واذا بيد على كتفى تجذبنى وصاحبها – أعنى صاحب اليد – يقول

« انى مضطر أن أحملك على ترك هذا . واذا كنت تريد أن تعرف شيئاً فأرجو أن تسألنى . . . »

ولم يتم كلامه بل تركنى وقفل راجعاً الى حيث لا أعلم كأنما ناداه أحد وان كنت لم اسمع صوتاً ، فدنوت من خادم وسألته عنه من يكون؟ فقال

« هذا الكبتن . . . مساعد الربان »

فقلت : « هذا أكثر مما أطيق . اسمع . انك مصرى مثلى فاصدقنى . إذا أغمضت عينى وسرت فى هذه الباخرة ووضعت يدى على أول رجل أصطدم به فهل يمكن أن يتضح أنه ليس بكبتن ؟ »

فضحك الخادم وهو من السويس وقال :

« لا أدرى ، ولكنى أرجح أن تصطدم بالكبتن الملاحظ فانه

وراءك الآن وعلى مسافة مترين فقط . »

فانحدرت الى غرفتي وأنا أقول لنفسي : « ان السفينة التي لها رئيسان تغرق فكيف بواحدة عددت من (كباتنها) أربعة الى الآن ! اللهم لطفك ! » وفترت رغبتي في الطعام ، وكان نبيه بك العظمة يحرضني عليه ويلح على أن أصيب منه قليلا ، فاعتذرت بالألم الذي سببته لي حقنتا الكوليرا والتيفوئيد ، وكتمت عنه وعن زملائي أن للسفينة مائة رئيس حتى لاأزعجهم .

ومضى اليوم الأول وأصبحنا دون أن تتصادم « ارادات » هؤلاء القباطنة أو الكباتن ، فذهب عني بعض الروع وعاودني شيء من الاطمئنان . واتفق أن سألني بعض رفاقي :

« بسرعة كم ميل تسير هذه السفينة ؟ »

فقلت : « لاأدري ، ولكني أقدر أن سرعتها لاتتجاوز اثني عشر ميلا بحرياً في الساعة »

فصاح بي واحد :

« مهلا ! ان سرعتها خمسة أميال فقط !

قلت : « خمسة أميال ! ياللعـــار ! لو سرنا على أقدامنا لسبقناها ! »

فعاد يؤكد الأمر ويقول انه استقى هذه الحقيقة من الكبتن فأيقنت أنه لولا كثرة القباطنة لكانت الباخرة أسرع . وقلت

لنفسى اذا كان البطء كل ماتؤدى اليه كثرتهم فلابأس .

واستيقظت بعد ظهر يوم على صياح عجيب ، لاهو صياح ولاهواستغاثة ، لأن فيه انتظاماً ولأن فى الصوت تنغيما ، فاستويت قاعداً وأرهفت أذنى فخيل الى أن الألفاظ عربية. ولكن اللهجة غريبة ، ثم تبينت لفظين هما : « الله أكبر ! » ولكن اللسان الذى يعلو بهما كان أعوج ملتويا ، فعجبت ثم تذكرت أنها احدى سفن « البوستة الخديوية » وهى شركة انجليزية تسير بواخرها بين السويس والسودان جيئة وذهوباً ، وتنقل الحجاج - فيما تنقل - الى ينبع وجدة - وقد رأينا بعضهم فى الباخرة على غطاء مخزن البضاعة حيث يفرشون السجاجيد ويكدسون أمتعتهم ويحشرون أنفسهم بينها تحت سماء الله - وهذا هو مكان الدرجة الثالثة .

وقد قلت لنفسى لما سمعت هذا الصوت : ان الانجليز قوم يتوخون أن يتكيفوا على مقتضى الظروف ووفق ماتتطلبه الأحوال وهذا الذى سمعته أذان أى دعوة الى الصلاة ، وليس مما يتنافى مع الشذوذ الانجليزى أن تكون الشركة قد عينت للأذان فى الباخرة واحداً من هؤلاء « الكباتن » الذين لا أدرى ماذا يصنعون جميعاً فى سفينة صغيرة كهذه ،

وسرنى وأضحكنى أن المؤذن « كبتن » انجليزى ، وقلت أشرك اخوانى فيما يفيده العلم بذلك من المتعة ، فعدوت الى سطح الباخرة

حيث كنا نجتمع فالتقيت بواحد أقبلت عليه أفضى اليه بخبر هذه البدعة السكسونية . فضحك ، ولكن منى ، ثم أشفق أن يعرف زملائى زلتى فيركبنى الثقلاء منهم بالسخرية ، وأومأ فاذا تحت أنفى جماعة من العرب يصلون ، واذا صوت الامام كصوت المؤذن فيه ذلك الالتواء الذى خدعنى .

وكانت سلوتنا الحديث والنظر الى البحر ، و « الطاولة » وكان بطلها – أعنى الطاولة – أحمد زكى باشا ، غلبنا جميعاً وأقر لكل منا بأنه خير لاعب ؛ وفى زكى باشا نشاط وجلد وقدرة على الاحتمال وحلم وظرف وعطف ودعابة ؛ راعتنى منه ، وكان لنا كالوالد يحنو علينا ويسأل عنا ويتعهدنا ولا يؤثر نفسه دوننا بملهاة ، ولا يستبد برأى أو يصر على اقتراح جداً كان أو هزلا ، بل الرأى عنده مارأت الجماعة ، يتقبله مرتاحا وينزل على حكمه راضياً ولو كان هو مقتنعاً بصواب مايذهب اليه ، وكان أعذب الجميع حديثا وأمتعهم مجلساً نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى ، فتعلقت بهما وأثقلت عليهما بمحضرى ، ولم أدع لهما راحة ، ولم يبخلا على بشىء مما استخبرتهما عنه فكانا يهضبان لى بما رأيا وجربا وكابدا فى رقع شتى من الأرض فى الحرب والسلم ، ولم يكن لهما منى مناص أو مهرب سوى البحر ، وهما لايزالان أوسع آمالا فى الحياة وأطلب لرغائبها منها وأقوى رجاء فى الله وفى بلوغ

الغاية القومية من مساعيهما ، من أن يفكرا فى الانتحار فراراً منى .. لذلك توثقت بيننا العرى كارهين أو راضيين، فلما بلغنا ينبع صرنا وكأن صداقتنا أقدم عهداً من الجبال .

ولست أنسى منظر الزملاء وقد اعترتهم نوبة « الكتابة » — وتصور سبعة أو ثمانية قد جلسوا على الكراسى المسمرة وأقبلوا على الورق والبطاقات يسودونها لما علموا أنهم مصبحون فى ينبع وأنهم قد يستطيعون أن يبعثوا برسائلهم من هناك «١» — الى أهلهم واخوانهم وصحفهم ، ويكفى أن يجلس واحد للكتابة ليحتذى الباقون مثاله ويعديهم بالرغبة فى ذلك ، فليست الثؤباء وحدها هى التى تعدى ، ولا القرود دون خلق الله هى التى تنزع الى التقليد ولو أن القارىء رآنا فى تلك الساعة ونحن مكبون على الورق ذاهلون عن كل مافى الدنيا لكان أول مايخطر له أننا قد آلينا أن نصدر فى الباخرة الصحف التى نمثلها ، أو أن هناك امتحاناً معقوداً لنا .

وعرض علينا أحد رجال السفينة بطاقات عليها رسمها فتخطفناها حتى نفدت ! كما نفد ورق الخطابات . وتصور سبعة أو ثمانية يستنفدون كل مافى الباخرة من ورق وخطابات ، أليس هذا دليلا

---

(١) اتضح فيما بعد أن ابقاء الرسائل فى جيوبنا أسرع من إرسالها من ينبع او جدة .

على الهمة والنشاط والخصب؟ وأحسبنى مسئولا عن العدد الأكبر من هذه الأوراق التى استهلكت ، فقد نازعتنى نفسى أن أكون متفرجاً لا كاتبا ؛ وأن أمتع عينى بمناظر الوجوه المكبة على الورق وما يظهر عليها من دلائل الاجهاد ـ اجهاد القرائح الخصيبة ـ فلجأت الى الحيلة وقلت أكتب رسائلى بالجملة ، فجئت بورق الكربون ووضعته بين الخطابات ، وكتبت رسالة واحدة وجيزة ثم جلست أتفرج !

وكان أحدنا يكتب يوميات عن هذه الرحلة وكان يختصنى بهذا السر ، ولا أدرى متى كان يكتب يومياته ، فما رأيته قط خلا بنفسه أو بكر إلى مخدعه ، وقال لى مرة :

« لقد صارت مذكراتى ضخمة . كتبت اليوم ست صفحات وكتبت البارحة سبعاً ، وأول من أمس تسعاً ، فما قولك ؟ »

فقلت مستغربا : « كل هذا ؟ وأى شىء وجدته يستحق التسجيل ؟ »

قال : « كل شىء . خطوط الطول والعرض ، ووجوه القمر ، وأدوار الطاولة التى لعبتها وفى أيها كنت الغالب أو المغلوب ، والأسماك التى رأيناها فى البحر ، بعضها يطير على سطح الماء ، وبعضها يهاجم السفينة طلبا للقوت ، والبواخر التى مرت بنا فى الليل وحييناها والأمم التى هى تابعة لها ـ وعلى ذكر ذلك أسألك هل

تعرف لماذا لانرى باخرة فى النهار؟ ألا تعرف ؟ - وكم كذبة كذبها . . . فلان . . . اليوم ، وحالة البحر والرياح ، وان كانت لا تتغير ولا تكاد تختلف يوما عن يوم ، وهذا ممل ، أليس كذلك؟ وكم صورة أخذها رياض وكم صورة أخذتها المدموازيل عايدة ، كل شيء ، كل شيء ، حتى لقد أفردت « لأكلة الصيادية » عدة صفحات ، إنها تستحق ذلك فقد كانت أكلة غير منتظرة . وكانت لذيذة . والفول المدمس ؟ أوه . له وحده صفحتان . ألا تراه جديراً بذلك ؟ مدهش . مدهش أن نأكل فولا مدمسا على الباخرة تالودى الانجليزية ! »

فسألته بعد أن انقطع نفسه : « وماذا تنوى أن تصنع بهذه المذكرات بعد أوبتك ؟ »

قال : « سأطبعها وأنشرها : كم تظن أنها تساوى ؟ أعنى كم تتوقع أن أربح منها ؟ »

قلت : « تساوى : تساوى اذا اعتبرنا عدد الصفحات ووزنها قياسا على ما كتبت الى الآن مائة جنيه أو مائتين »

فصافحنى مسروراً وهو يقول « لقد قدرت لربحى مثل هذا... تماما » .

فقلت مستدركاً « انما أعنى ثمن الورق الذى تملؤه . . . أما الربح فلا أدرى . ربما كان أكثر وقد يكون أقل »

فلم يضعف أمله وقال « تمام . تمام . تقديرك على كل حال مضبوط » ومضى عنى

ولما كنا عائدين من مكة سألته : « الى أين وصلت فى مذكراتك؟ »

فطال وجهه وقال : « ياأخى الحق أقول لك إن كتابة المذكرات عمل مضن . ثم انى لاأجد الوقت . نحن فى حركة دائمة فمتى أكتب؟ على أنى سجلت كل شىء فى رأسى . فان ذاكرتى قوية وأنا أذكر حتى الأحاديث بألفاظها ولو كان عمرها أعواماً . فلاخوف . انتظر حتى نرجع وتطمئن »

* * *

وفى الساعة السادسة من صباح السبت (٤ يناير) أيقظنى أحد الزملاء وأبلغنى أن الشاطىء قد ظهر، فقلت له وأنا أتميز غيظاً انى لاأحفل بالشواطىء ـ ولو كانت شواطىء الجنة ـ فى الساعة السادسة صباحا ، فذهب عنى وأغمضت عينى ، ولكن غيره جاء ثم غيره ، فأيقنت أن الحماسة التى أوقدها ظهور الشاطىء لن تدع لى جفنا يغفى ، فقمت متثائباً متثاقلا ووقفت متكئاً على الحاجز فلم أر شيئاً فالتفت الى أول من أيقظنى وقلت بلهجة المعاتب :

« أين هذا الشاطىء الذى بدا لك ياسيدى ؟ »

فقال : « هذا . ألا تراه ؟ غريب . انى أستطيع أن اشير الى المكان الذى سترسو أمامه الباخرة . لابد أن يكون هذا »

ومرت الساعات ونحن نروح ونجيء وهو فى مكانه لا يتحول عنه ولا تتعب رجلاه ، وبدت ينبع ملفوفة فى الضباب ، حتى جبال رضوى التى تظهر من ورائها خلناها ضبابا من اختلاط السحب برؤوسها ، فاختلفنا وتراهنا ، وشرعت السفينة تدور لتدخل المرفأ فقربنا جداً من الساحل وشاء الحظ الساخر أن يكون المكان الذى أشار اليه صاحبنا وأصر على أن الباخرة سترسو عنده ، هو المقبرة

* * *

ورست الباخرة ، فى المرفأ لا أمام المقبرة ، وأقبل الصبيان يسبحون اليها كالسمك وينادوننا أن نلقى اليهم بالقروش ليلتقطوها فرحنا نرمى اليهم بالقرش بعد القرش وهم يتزاحمون عليه ويغوصون وراءه ويتلقونه بأكفهم وهو يهبط فى جوف الماء قبل أن يبلغ القاع ، فمن فاز به دسه فى شدقه ، حتى انتفخت أشداقهم وصارت وجوههم مشوهة بشعة المنظر

وركبنا زورقا الى المدينة ، وهى صغيرة فقيرة ، وبها مساجد كثيرة اشهرها مساجد ابن عطاء والخضر والسنوسى ، وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع ، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب يسمونها « الكندنسة » وهى لفظة محرفة عن الكوندنسر ، فاستقبلنا قائم المقام الشيخ مصطفى الخطيب وهو من أهلها وكان عاملا عليها فى عهد الحسين فلم تنحه الحكومة

السعودية ترفعا منها عن حماقات العزل والتأمير . وزرنا دار الحكومة وهي ابسط ما تكون : بضعة مكاتب فى الدور الأرضى ، وفى الدور الذى فوقه غرفتان إحداهما للقائمقام وفيها مكتب وسجادة ولشبابيكها ستائر ، وفى الاخرى مكتبان صغيران . وبعد أن شربنا القهوة النجدية ثم « الشاهى » كما يسمون « الشاى » استأذنا وانحدرنا الى المدينة نطوف فيها الى أن يخرج الامير والناس من صلاة الظهر ، فمررنا بالسوق وهى حارة ضيقة مسقفة على جانبيها الدكاكين فيها صنوف شتى من العطارة والبقول والمنسوجات والخبز والاسماك والجراد ، وقد أكل منه زكى باشا ، ولم يكن فى الدكاكين أحد لأنه كان وقت الصلاة ، وكان الطريق غاصاً بالاطفال يمشون وراءنا ويحفون بنا فى خرق ممزقة ومراقع لاتكاد تستر شيئاً ، فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتاجر أن يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟؟ فقيل لى انه لاخوف منهم لأنه مامن أحد يجرؤ أن يسرق شيئاً .

وبلغنا آخر السوق حيث المسجد وكان الناس قد فرغوا من الصلاة فوقف رجل أمام كوم من الكلأ وقطع من الحصير وأعواد من الخشب يبيعها بالمزاد ، وكل ما أمامه لا يساوى ريالا .

ولم أر امرأة ولا بنتا ، الا واحدة فى نحو السابعة من عمرها ملفوفة فى ملاءة قذرة وفى إحدى أذنيها قرط من العقيق ؛ وقيل

لى إن النساء لايخرجن من البيوت ، والأهالى خليط من كل جنس وملة ، وسحنهم معرض للأمم الشرقية ، فمن زنجى الى جاوى ، ومن عربى الى مصرى ، ومن هندى الى فارسى ، ومن سورى الى سومالى ، وهكذا ،

وزرنا الأمير - أى الحاكم - عبد العزيز بن معمر ، وهو شاب نجدى جميل الطلعة وسيم المحيا مقدود قد السيف ، والدار على الطراز الشرقى القديم الذى كان مألوفا فى مصر منذ أكثر من خمسين عاما ولا تزال بعض آثاره باقية فى الاحياء الوطنية التى لم تمتد اليها يد العمران الحديث مثل الكحكيين وسوق السلاح ، وغرفة الاستقبال فى داره مفروشة ببساط أحمر والكراسى (الخيزران) صفان على الجانبين ، وفى الصدر مصطبة مفروشة بالسجاد العجمى وعليها الوسائد لجلوسه وكان الأمير يلبس جلبابا من السكروتة فوقه معطف من الكشمير عليه عباءة حمراء وعلى رأسه العقال الأسود والمسدس مشدود الى وسطه والسيف المذهب المقبض يتدلى من حمائله ، ومن عاداتهم أن يجلس حرسه الخاص على جانبى الباب من الداخل فى نفس الغرفة ، ويجلس الباقون من الحراس خارجها وهم جميعاً مسلحون ، والسيوف والبنادق والمسدسات وأحزمة الخراطيش معلقة على الجدران فكأن الغرفة مخزن سلاح لاحجرة استقبال

وفى ينبع بلدية ، ومكتب تلغراف لاسلكى ، ومدرسة أولية ابتدائية يديرها مصرى طبقاً لمناهج التعليم المصرية وفيهانحو مائة وتسعين تلميذا متفاوتى الاسنان والأطوال ، متباينى الثياب مختلفى الوجوه . ومصلحة للصحة الخ

وقد شعرنا من أول لحظة أننا فى بلاد مستقلة فلا أجنبي هناك ولا نفوذ ولاسلطان الالأبناء البلد وكل موظف حجازى حتى اللاسلكى عماله ومديره حجازيون ، وقد أبى زكى باشا الا أن يرى هؤلاء العمال وهم يبعثون بتحيتنا الى سمو الأمير فيصل فى مكة كأنما لم يكن يصدق ان لابسى العباءة والعقال يستطيعون أن يحسنوا ما يحسنه الأوربى من الاعمال الآلية على الأقل .

و ودعنا الأمير بعد أن أخذت صورتنا معه وعدنا الى الباخرة وهناك جاءنا وفد من ينبع ليرد لنا الزيارة و يشكرنا ، وبعث الينا الأمير بعدد من الخراف هدية منه عوضا عن الغداء الذى لم نستطع أن نجيب دعوته اليه اذ كنا قد تغدينا فى الباخرة .

لحرنا ماذا نصنع بهذه الخراف ! وعقدنا مؤتمراً للتشاور . فقال واحد نردها شاكرين ، ولكن هذا كان مستحيلا ، واقترح ثان أن نردها ولكن لتذبح وتوزع على فقراء المدينة ، ولكن هذا كان ردا على كل حال ، وفيه فضلا عن ذلك خشونة التعريض بالمدينة وأهلها وحكومتها ، وقال ثالث ان فى الباخرة حجاجا فقراء فلنذبح

الخراف لهم ولنوزع لحمها عليهم ، ففعلنا

وهكذا كان كل اقتراح مولداً من الذى سبقه ، وأنتج الخطأ فى آخر الأمر الصواب . ولا عجب ، فما من خاطر أو احساس الا وهو وليد خواطر أخرى واحساسات شتى ، وليس فى الدنيا الا آدم واحد بلا أب أو أم.

* * *

وفى ينبع وجدت «صندوق الدنيا» ، وكنت أحسبنى حططته عن عاتقى فى مصر ، وكان ظنى أنه يسعنى بعد أن سافرت أن أمشى خفيفا لايثقل كاهلى هذا الحمل ولا يحنى ظهرى ثقله ، فاذا بى قد صرت كالأحدب لايدخل فى مقدوره أن يستوى قائما كغيره من بنى آدم الذين كتبت لهم السلامة من اعوجاج الخلق و حدب الظهر وقال لى واحد :

« لقد قرأت صندوقك »

فغاظنى ذلك وإن كان قد سرنى ، وقلت «سأضعك فيه إن شاء الله بعد عودتى » فأقبل على يرجو منى ألا أفعل ، فقلت :

« على شرط ».

« قال ماهو؟ »

قلت : « أن تعفينى أنت واخوانك من ذكره والا حشرتكم فيه جميعا »

قال وهو يضحك :

« ولكنه والله ممتع »

« قلت : «وسيكون الجزء الثاني أمتع بوجودكم » فامتقع وجهه ، وأحسبه خاف أن أرسم له صورة تمسخه وتجعله أضحوكة فطمأنته وأكدت له أني أمزح : فسألني وقد سكنت نفسه :

« ولكن لماذا تكره أن يذكر لك ؟ »

فقلت له : « إن الذى يضحكك منه هو الذى أبكانى وأحسبنى معذوراً اذا كنت ازهد فى كل ما يذكرنى بسخر ماجرت به المقادير . فاذا كنت تفهم هذا فبها ولله الحمد ، والا فأمسك ودعنا نستمع الى الباشا وهو يتحدث عن العروبة ويذكر الجواد الذى أهداه اليه جلالة الملك عبد العزيز فلم يدر كيف يركبه أو يطعمه أو يلجمه أو يسرجه ـ سله ألم يخطر له أن يطعمه كنافة فى رمضان ؟ سله أكان يأكل ـ أعنى الجواد ـ من الممدود أم كان الباشا ـ يبسط له السماط ويمد له الخوان ؟ »

* * *

وفى ينبع عشرة آلاف نسمة واقل من مائة جندى، والحكومة كأبسط ما تكون ، ولا حاجز هناك بين الأمير وأحقر الأهالى ، وسلطان الحكومة ليس مستمدا من الخوف الذى تبعثه القوة ، بل من الاحترام والحب والتعاون ،وآية ذلك أن الناس صريحون

مع حكامهم وأن الحكام لايبدو عليهم تكلف ، ولا تكون الصراحة مع الخوف والتقية ، ولا الخوف مع البشر الذى ينضح به الوجه ولا يخفى فيه صدق السريرة ، ولا هذه البساطة المبتسمة مع القسوة والاستبداد . ولم اسمع فى المرتين اللتين زرت فيهما ينبع ، أمرا يلقى ، أو كلمة ملق ودهان تقال ، ولقد كان أمير ينبع يسر الى الرجل من حرسه أن يطلب القهوة أو « الشاهى » أو يدعو فلانا أو علانا أو يفسح الطريق ، وكنت أراه وهو يميل عليه كأنه يهمس فى أذنه نكتة أو كلمة سارة . ولم تأخذ عينى منظر قسوة واحدا ، وكثيراً ما كانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا أمامنا ـ فى ينبع وفى جدة وفى الكندرة وفى مكة وفى وادى فاطمة ـ وكان الذين يتولون ذلك الجند ، ولكن باشارة يد من غير أن يدفعوا فى صدور الناس أو يرفعوا فى وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك وقد عدت من ينبع الى الباخرة وأنا أحس أنى بدأت أفهم ، وقد زدت فهما لما زرت جدة ومكة . ذلك ان الرعية راضية وان الحاكم والمحكوم متعاونان .

* * *

وقد اقتنعت ، وأنا لا أزال فى الباخرة قبل أن أصل الى جده أو أضع رجلى على رصيف مينائها ، بأن المرأة النجدية تعرف

السفور ولا تعرف الحجاب ، وكان اقتناعى بالمشاهدة والمعاينة وليس بالسماع ، ورأيت من الحزم أن أكتم عن زملائى ورفقائى فى هذه الرحلة هذا السر الذى اهتديت اليه لأنفرد بالعلم به وأستأثر بفضل اكتشافه والوصول اليه ، وقلت لنفسى : ان الصحافة سبق ، ولن تكون لى مزية على اخوانى اذا عرفوا كل ما أعرف ، ومالى انا بهم ، ؟ أليست لهم عيون مثل مالى ؟

ونزلنا فى ينبع وجبنا طرقاتها ومررنا بحوانيتها ورأينا ناسها ؛ وكنت اسمع زملائى يتحدثون عن المرأةوالحجاب المضروب عليها ويرددون ما سمعوا من أنها لاتخرج ولا تظهر ولا يراها غير زوجها وذوى قرابتها الأدنين ، فأبتسم ساخراً وأهز رأسى هازئا متهكما وأرد نفسى بجهد عن أن أصيح بهم :

« ياعميان ! ان نصف من ترون فى الطرقات نساء تحسبونهن رجالا ! »

وقد رأى زملائى المساكين جدة ومكة وما بينهما وعادوا وهم على ذلك يعتقدون ان النساء النجديات محجبات ! مساكين ! لكم وددت أن أشق لهم بالمبراة جفونهم المطبقة ليبصروا وكم نازعتنى النفس أن أخطبهم على ظهر السفينة ونحن راجعون ، وأن ألقى عليهم محاضرة فى النظر وكيف ينتفع صاحبه به ولكن الأثرة غلبتنى ، وحب الذات كان أقوى فتركتهم يرجعون كما ذهبوا بعيون

مفتوحة كمغمضة ، وكان احتمالى هذا الكتمان وقدرتى على الامساك على سر ماعلمت ، جهداً شاقا لم اكن لأقوى عليه لولا الارادة المصممة . والآن وقد امتحنت ارادتى وأيقنت انى نجحت ، أرانى أستحق ان أرفه عن نفسى بالافضاء وأن أرخى أعصابى المشدودة بالبوح بما أحسنت كتمانه .

لما صرنا أمام رابغ أحرمت الباخرة - أعنى ركابها الذين ينوون ان يقصدوا الى مكة مباشرة فظهر بيننا فجأة رجل نجدى قيل لى انه أمير فى قومه وحوله حاشية كبيرة من اتباعه وعبيده ، وكلهم محرم ، والاحرام لا يمنع ان يلبس المرء سلاحه ، فكانوا يحملون فوق ما أحرموا به المسدسات والخناجر وأحزمة الخراطيش واتصلت بيننا وبين هذا الأمير الأسباب ، فاختلطنا وصار عبيده وخدمه يسقوننا من قهوتهم النجدية الحادة ، وهم يقدمونها فى فنجانة كبيرة مفرطحة يصبون فيها نقطة ، او رشفة ، تحتاج لكى تشربها او تلحسها او تنقلها الى فمك ، ان ترفع وجهك الى السماء وتقلب الفنجانة على فمك لينحدر ما فيها الى لسانك ، حتى اذا فرغت دون ان تقع على الأرض رددت الفنجانة فصب لك فيها رشفة أخرى اذا راقتك الحركة التى يكلفك اياها شربها والا هززت الفنجانة علامة الاكتفاء ، وقد سمعت - وصدقت - ان القهوة النجدية تقوى عظام العنق . وقد سمعت ايضا - ولكنى لم

أر هذا ـ أنهم يعقدون مباريات لشرب القهوة وهم وقوف

وكان معنا « رياض افندى شحاته » المصور المشهور فدعاهم الى الوقوف معنا ليصورنا ففعلوا وكنت غائبا فنادونى فأسرعت اليهم ووقفت حيث وجدت لى مكانا واذا برياض افندى يدعونى أن أتزحزح عن مكانى و يشير الى جارى فالتفت الى يمينى فلم يسعنى الا أن أتراجع بسرعة والا أن أقول :

« بردون مدام ! أعنى معذرة ياسيدتى ! لقد زاحمتك وأنا غافل عن وجودك فلا تؤاخذينى ! تفضلى »

وتنحيت بعد هذه الخطبة التى لم ترق من سمعها من اخوانى فصاح بى واحد :

« ماذا تقول ؟ قف يااخى هنا . نعم هنا واسكت . »

فهززت رأسى آسفاً مستغرباً قلة ذوق هذا الزميل الذى ينقم منى تأدبى مع سيدة . فسمعت رياض افندى يصيح بى

« ماتهزش راسك ياأستاذ مازنى »

فحار الأستاذ المازنى بين رياض افندى وهذا الزميل الموبخ وقال ـ أى الأستاذ المازنى ـ لجاره الى يساره :

« أنا كنت اعتذر فوبخنى زميلى لاأدرى لماذا ؟ هل كان يليق أن أكتم الاعتذار لها بعد أن فطنت الى غلطتى ؟»

ففتح جارى عينيه جداً وقال بلهجة المستغرب

« ماذا تقول ؟ من تعنى ؟ » .

وهنا صاح رياض افندى

« يا أستاذ مازنى اعمل معروف واقف ساكت خلينا نخلص »

فقلت « اما ان هذا لغريب ! وهل انا الذى أعطلك ؟ الحق اقول إنى صرت لاأفهم » وأيقنت أن رياض افندى غائر منى

وقال واحد كان ورائى

« لابأس . أجل الفهم الى ما بعد التصوير »

فنظرت الى الأمير فرأيته يبتسم . وثنيت عينى الى جارتى الرشيقة وشعرها الوحف المضفر الذى يفترق فوق جبينها الوضاء ويلمع فى ضوء الشمس كأنه مدهون « بالبرينتين » والى حور عينيها الواسعتين اللتين يزينهما الكحل ، والى ديباجة وجهها الصافية وماء الشباب الذى يترقرق فى وجنتيها ، والابتسامة الخفيفة المغرية التى تفتر عنها شفتاها الرقيقتان

وأحسب عينى لم تتحول عنها ، وأظننى ظهرت فى الصورة ناظراً اليها لاالى رياض افندى ، فما كدت ألتفت اليه حتى كان قد فرغ مما يريد فقلت لابأس ، واقبلت على صاحبتى أكرر لها الاعتذار وهى لاتزيد على الابتسام ولا تفتح فمها قط حتى كدت أجن شوقا الى رؤية أسنانها التى لم أشك فى أنها من مفاتنها الكبرى . وأشرت الى فمى وقلت أستفزها الى الكلام

« أليس لك لسان ؟ أأنت خرساء ! مسكينة ! يالسخر الاقدار! »

فهزت رأسها وقالت شيئا لم أفهمه . فأعدت ماقلت ببطء شديد ووضوح تام ، فضحكت وهزت رأسها ثانية ، وتكلمت ، ولكنى لم أفهم ، فخطر لى أنها غير عربية ، وأنها لعلها فارسية أو افغـانية وحرت بأى لسان أخاطبها ، ولحق بى فى هذه اللحظة زميل فجذبنى وهو يقول :

« ماهذا ياأخي؟ تعطلنا نصف ساعة حتى تحضر ونحن واقفون تحت الشمس المحرقة ، و بعد أن تحضر يحلو لك الكلام والايماء . هذا شيء بارد والله ! »

فقلت : « ليس هذا ذنبي فقد كنت أؤدى واجب الاعتذار . . . »

فقاطعنى قائلا « اعتذار ايه ياأخى ؟ لا لا . . هذا لا يليق ! لقد شوتنا الشمس . ولن ننتظرك مرة أخرى »

فتركته وملت الى غيره وهمست فى أذنه

« ألا ترى هذه السيدة ؟ ألم يرعك جمالها ؟ »

فقال : « سيدة؟ أى سيدة ؟ »

قلت : « أى سيدة ؟ هذه يا أعمى ! »

وأشرت اليها

فانفجر يقهقه وأنا أنظر اليه كالأبله ، ولما رأيت أن ليس لهذا الضحك آخر مضيت عنه الى غرفتى فلحق بى فيها وهو يقول

« سيدة ايه يامولانا ! هذا رجل »

فانتفضت واقفا وصحت به مغضبا

« رجل ؟ تقول انها رجل ؟ أأنا أم أنت الأعمى ؟ »

فعاد الى القهقهة ، وقعدت ، ثم قلت له

لقد كلمتها ووجهت اليها الخطاب بضمير المؤنث فلم تعترض فكيف تزعمها رجلا » ؟

قال : « المسألة بسيطة . لم يفهم كلامك لأنه بدوى قح ، وأراهن أنك لم تفهم منه كلمة »

قلت : « صحيح . لقد حسبتها افغانية »

فابتسم وهو يقول « ليتك ترى هذا الذى حسبته امرأة حين يمتطى صهوة الجواد ويركضه الى القتال ويرسل شعره المرجل وينفشه ! اذن لرأيت أمامك وحشا مرعبا يميت عدوه بنظرة قبل أن يدفن فى صدره حربته »

قلت : « والكحل ؟ »

قال : « هذا سنة »

فلوحت بيدى ومضيت عنه .

ظاهرة عجيبة جدا هذه : النجدى المشهور بوعورة الخلق فى القتال ، يكون فى السلم كما رأيته فى الحجاز : على حظ عظيم من رقة الحاشية والدماثة واللين والطراوة حتى ليستحيل عليك أن تصدق

أن هذا الرجل الذى يكاد يسيل من اللين ، يحسن أن يركب جوادا أو يضرب بسيف أو يقوى على حمل رمح ، وقد رأيناه يفعل ذلك كله فكأنما ركب الجواد ألف عفريت ، ولا أكتم أنا خفناه !

فى جدة

بحر بليد ـ هذا هو البحر الأحمر ـ بليد كالرجل الذى تعابثه اليوم فيضحك غداً . والبليد صحبته متعبة ، ورفقته مشقة ، فان حسن الفكاهة ولذتها ـ كحسن الكراهة ـ فى تبادلها ، لا أن ينفرد بها جانب أو ينوء بثقلها واحد . وقد ظللنا خمسة أيام نسبح ـ كالسلحفاة ـ على ظهر البحر ، وكانت السفن تمرق بجانبنا كالسهم ـ أو كالأرنب مادمنا نذكر السلاحف ، ونحن نتبطأ ونتلكأ وأحسبنا كنا أيضاً نتراجع ـ ونداعبه ونمازحه وندغدغه فى كل موضع ونناجيه ونناشده أن يتنبه ونسأله أن يتمطى ويشد أوصاله ويتحرك ، ولكن هيهات ! لم يشعر بنا البحر أولم يحفلنا وأبت له البلادة أن ينتبه لوجودنا إلا بعد أن بارحنا ينبع ! بعد ثلاثة أيام شعر بوجودنا فتثاءب ! فانكفأ بعضنا فوق بعض ، وصارت الرؤس فى مكان الأرجل ، وأطلت المعدات من الحلوق وذهبت الكراسى تقعد علينا لانحن عليها ، وانقلب اظهر مافينا وأبرز اعضائنا ، اقدامنا فى الهواء فانتقمت بذلك من جور الرؤوس عليها وطول اغتصابها للمراكز الملحوظة

ولم أر أنا شيئاً من هذا ولكنهم حدثونى بما صنع البحر بهم ؛ فقد كنت نائماً وكان لى ايضاً غطيط عال يخفت صوت البحر على مازعموا ، فجاءنى زميل يقول ·

« البحر هائج اليوم »

فانتفضت قائماً وقد فرحت وسرنى أن البحر أولانا التفاتا وجعلت أروح واجىء بقدر ما استطيع فى هذا الجحر الضيق الذى يسمونه حجرة النوم وارفع صوتى بقول ذلك البدوى الساذج .

« البحر صعب المراس جداً لا جعلت حاجتى اليه !
أليس ماء ، ونحن طين ؟ فما عسى صبرنا عليه ؟

ولكن متى ياصاحبي فانى مازلت فيما اشعر على اليابسة ؟ »

قال . « الم تشعر به ؟ »

قلت « ربما كنت قد حلمت ـ بل انا على التحقيق احلم بالبحر هائجاً طاغياً عنيفاً ، ولكن البلاء والداء العياء يا أخى انى انسى فى الصباح مارأيت فى احلامى »

فقال . « أوه . هذا كلام فارغ ! لقد كانت الباخرة فى الليل تلعب هكذا (وأخرج قلماً من جيبه وامسك به من وسطه وجعل يرفع طرفيه على التعاقب) فكيف لم تشعر بذلك ؟ إن هذا غير ممكن ! »

قلت . « عفواً . لقد فاتنى نصف عمرى على التحقيق ، واخشى

ان يضيع النصف الباقى ونحن عائدون . ولـكنى كنت نائماً هكذا! متغارضاً على طول السفينة . فبينما كانت اقدامكم انتم ترتفع فى الهــواء ورؤوسكم تهبط الى حيث تستحق ، كنت انا لاأشعر بأكثر من حركة التنفس ، او بتقلب بسيط . آه ! لقـد تذكرت الآن انى كنت احلم بأنى اسبح فى الماء واخبط فيه بذراعى. صحيح . صحيح ! »

فلم يطق صبراً ومضى عنى . فلبست ثيابى بسرعة وعدوت وراءه وقد تنبهت فى نفسى كل غرائز السوء ، فلما صرت على ظهر السفينة ـ او مايسمونه ظهرها وان كان فى حبة قلبها ـ خطر لى انى لم أر ابدع من هذا الجو من قبل ، وانه لاعهد لى بمثل هذا التألق فى الشمس والجمال فى البحر . واى شىء فى الطبيعة افتن من منظر الجمال الوسنان ! ونازعتنى النفس ان أعرب عن إعجابى بكل هذا الحسن فى السماء والأرض ـ اعنى البحر ـ فرفعت صوتى اريد ان أغنى ، ولـكنى لم أدر مااقول فأقصرت .

وكنت انظر حولى فأرى رفاقى متشبثين بحديد الحواجز ، فدنوت من أحدهم وقلت :

« سبحان ربى القادر ! كيف بالله رددت طفلا لاتقوى على المشى وحدك ؟ »

قال : ألا ترى ؟

قلت . « ماذا ؟ »

قال . « ماذا ؟ الا ترى مقدمة السفينة كأنها سهم مسدد الى الشمس فى كبد السماء ! »

قلت . «معذرة ياصاحبي . لست ارى إلا ذنبها يحاول ان يغاطس الأسماك ليصطادها لطعامنا . ليس هذا من البحر ولكنه من الربان . من اين يطعمنا إذا لم يفعل ذلك ؟ »

وهممت بأن اقول كلاما آخر اثبت به نظريتى ، ولكن زميلا غيره القى بنفسه بين ذراعى ، فأكبرت هذه العاطفة منه وتمثلت فى سرى بقول الشاعر .

« اشوقا ولما يمض لى غير ليلة ؟
فكيف إذا خب المطى بنا عشراً ؟ »

ثم التفت اليه وانا ارفعه عن صدرى الذى سكن اليه وقلت

« اسعد الله صباحك ! جو بديع »

فوضع كفه على معـــدته وهو يقول « آه يابطنى ! » وذهب يتخطر .

واشتاقوا جميعا إلى معانقتى وانا واقف امام الباب اتلقاهم بين ذراعى مسروراً واهش لهم واقول للواحد بعد الآخر .

«هدئ روعك !انى مقدر عواطفك نحوى ، ولكن لا داعى الى العجلة فان الوقت امامك طويل يسمح حتى بأن تنظم قصيدة .»

فلا يزيد على ان يضع كفه على بطنه ويقول . « آه يابطنى ! » فخطر لى ان بهم عضة جوع ، فلما تلقيت آخرهم ـ وكنت قد فطنت الى هذه الحقيقة ـ قلت له .

« نهارك سعيد . لقد كنت تريد ان تقول . . . . »

ولكنه قاطعنى وسبقنى وقال وراحته على معدته . «آه يابطنى»

فعرفت انى مصيب فى إحالة مظاهر شوقهم الى شخصى الضعيف على الجوع . على الرغم من تأكيد احد الزملاء ان البحر هائج وان موجه « دفين » .

❊ ❊ ❊

ولم نخف لرؤية جدة لما شارفناها ، ذلك ان الساعة كانت الحادية عشرة صباحا ، والخادم كان يعد المائدة للغداء قبل موعده ، فقلنا هذه بشرى ، وجلسنا اليها ، وحضر الطعام فلم نبال جدة كيف تبدو ولم نكترث لمرفئها ابن رست السفينة منه ، فقد أقبلنا على الصحاف « نأكل مالا يحسب الحاسب » كأنما خفنا الا نقع فى جدة على طعـــام ، فرحنا ندخر مايكفى اياما ، وجعلنا نلتهم الشبابيط (السمك) والفراريج (الدجاج) بلامضغ مخافة ان يدركنا وفد مستقبل فيشاركنا ، وصح فينا قول ابن الرومى .

« فكاه كالعصرين من دهره   كلاهمـا فى شـــأنه دائب
ذى معدة ثعلبهـا لاحس   وتارة ارنبهـــا ضـاغب

تعـــــلوه حمى شره نافض   لـكن حمى هضمه صالب

وصدق فينا المثل العامى (وقت البطون تضيع العقول) . فلما صعد الطبيب الى الباخرة ودخل علينا ادار عينه فينا فلم ير احداً رفع راسه فقال ،

« ماشاء الله ! ماشاء الله ! الحمد لله على السلامة ! »

وكانت الأفواه فى شغل بما فيها فرددنا بأيدينا واستأنفنا العمل فقال .

« صحتكم طيبة والحمدلله » .

« مش بطالة : نحمد الله على كل حال » .

فقال « لعل البحر كان هادئا » .

فلم يسمع سوى صرير الأضراس ، فارتد مسرعا ، وأكبر الظن انه انذر قومه :

« أكل يتامى مالهم كاسب » .

فقد خف الى الباخرة وفد كبير من شيوخ جدة وأعيانها ـ جاءوا ، كما أرجح، لينظروا بأعينهم كيف نفترس الطافى ونغوص وراء الراسب ، ونعمل أضراسنا فى الجامد ، ونعب فى الذائب ، ولكننا عجلنا قبل مقدمهم ، وفرغنا من هذا الشأن قبل ان يضعوا زجلا على سلم الباخرة ؛ فلما صعدوا إلينا ألفونا جلوسا الى المائدة ، ولكن المائدة لم يكن عليها شىء ، ولم يكن يبدو علينا أثر من آثار الغارة التى

شهدها الطبيب ووصفها لهم على التحقيق . فنهضنا لاستقبالهم فى وقار وأبهة ورحبنا بهم وانطلقنا نتحدث معهم ونستخبرهم عن جدة والمطر الذى سمعنا به ، وهم يحسوننا بعيونهم و يستدرجوننا ، ولكن هيهات ! فانخدعوا وشكوا فيما رواه الطبيب لهم

وكانت السماء قد جادهم منها هاضب سحاح ، وامطرتهم كما لم تمطرهم منذ أربعين عاما على قولهم . فقلت : « اعوذبالله»

فقال أحدهم : «بل حمداً لله وشكراً»

واستبشروابنا وتفاءلوا خيراً بقدومنا ، وأنساهم السرور بالمطر هول ما سمعوا عن كراتنا على الطعام ، وأشرقت وجوههم بعد شحوب وتفتحت نفوسهم لنا بعد أن كاد يقبضها الدكتور عنا بما صورنا لهم . وانحدرنا الى الزوارق البخارية بين عبارات الترحيب والتأهيل الصادقة ، وكان جارى فى الزورق أميراً نجديا محرما وفى يمينه بندقية ، فلم أرتح الى جيرتها وقربها من صدغى ، فقلت له فجأة :

« هذا فلان يسلم عليك »

فاضطر أن ينقل البندقية الى يسراه ليصافح صاحبي ولصقت به حتى لا أدع مكانا تعود اليه اذا فكر فى تحويلها الى حيث كانت .

ولو أن الزورق سار فى خط مستقيم الى « الرصيف » لبلغناه فى ثلاث دقائق ، ولكنه اضطر أن يدور بنا حول الميناء فقطعنا

المسافة فى خمس وعشرين دقيقة ، لأن مدخل الميناء مكتظ بالصخور والشعاب الحادة التى تقطع الحديد كالسيف . وقدفكرت الحكومة فى اصلاح الميناء فخطر لها على ماعلمت أحد أمرين أن تطهرها وتعمقها ، وهذا باهظ التكاليف ، أو أن تبرز بالميناء فوق الصخور وهذا أيسر وأقل كلفة . وهناك رأى ثالث سمعت به ولا أدرى الى أى حد ينظرون اليه على انه اقتراح جدى ، وهو أن تبنى الى جوار جدة مدينة جديدة على البحر يكون ساحلها أسهل وأخلى من الوعور ، فان انشاء مدينة جديدة أيسر وأقل نفقة وتعبا من اصلاح مدينة قديمة بهدمها شيئا فشيئا واقامتها من جديد على مقتضى مطالب العصر فضلا عن اصلاح الميناء وهو وحده مشكل . وكان يستقبلنا على الرصيف قائمقام جدة الشيخ عبد الله رضا الزينلى ولفيف من الأعيان ، وسيأتى الكلام عليه فيما بعد فصعد بنا الى بناء فيه موظفو الميناء وجلس معنا فى الشرفة الى أن قرب الزورق الثانى فاعتذر وخف الى استقباله . وتركنا مع المستر فيلبى وحقى افندى سكرتير القنصلية المصرية وفريق من الأعيان ولم يكن لهم جميعا حديث الا هذا المطر العجيب التى سبقنا وكانت تحيتهم لنا «جئتم بالغيث» . ولهم العذر ، فان بلادهم صحراء جرداء ليس فيها نهر أو جدول واحد ، واعتمادهم فى معايشهم على المطر والآبار ، فاما المطر فلا سلطان لهم عليه . وأمره بيد الله

وأما الآبار فقد كان عددها كبيراً وكانت العناية بها شديدة ، ولكن الاتراك لما اضطروا الى الانسحاب من بلادهم فى إبان الحرب العظمى، خربوا أكثرها حتى لخفيت معالم عدد ليس بالقليل منها ، وعلى أن الآبار مهما كثرت لا تسد حاجات البلاد ، لانها تجف وتنشف ، ومن هنا فكرت الحكومة السعودية فى الآبار الارتوازية وفى استخدام الآلات الحديثة لاستنباط الماء من جوف الأرض ، واستوردت عدداً منها واتخذتها بالفعل فى المدينة ومكة ، وهذا خير ما يسعها الى الآن ، مع العناية بالعيون وتعهدها بالاصلاح .

وليس فى جدة فنادق ينزل فيها القاصدون اليها ، وانما ينزل الناس فى بيوت الأهالى ، فمن شاء استأجر منزلا بأسره ، ومن كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة ، على مثال « البنسيون » فى مصر مع فروق طبيعية . أما نحن فكنا ضيوفا على الحكومة ، وكان العزم أن ينزلونا جميعا فى بيت واحد ولكن الأعيان تزاحموا علينا فقسمونا ثلاث فرق : واحدة فى بيت الشيخ محمد نصيف وهو من وجوه جدة وكبار تجارها وأصله مصرى وله مكتبة خاصة هى أكبر مثيلاتها فى الحجاز ، وفى داره ينزل على ما سمعنا جلالة الملك عبد العزيز حين يكون فى جدة ، والفرقة الثانية فى بيت الشيخ الفضل ، وهو كاسمه من أهل الفضل والوجاهة ، والباقون

ستة كان من حسن حظى أنى أحدهم ، نزلوا فى دار حسين أفندى العوينى ، وهو شاب سورى الأصل نزح الى جدة لاسباب قومية واشتغل فيها بتجارة واسعة ربيحة ، وسيجىء عليه كلام .

ولم نكد نستقر فى بيوتنا حتى قيل لنا : الى بيت القائمقام ، فنهضنا وركبنا السيارات الخاصة التى أفردت لنا ، وذهبنا نخوض بها شوارع جدة ، وأقول نخوض ، وأنا أعنى ما أقول : فقد خيل إلى أنى فى البندقية وأننا أحوج الى القوارب والزوارق – أو الجوندولا – منا الى السيارات . وكانت العجلات تغوص فى الماء الى النصف . ولشد ما عجبت حين نظرت فاذا سائق السيارة صبى لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره . فخفت أن يقلبنا فى الأوحال أو يدخل بنا الحوانيت أو يحاول أن يصعد الحائط بالسيارة . ولكنه كان حاذقا وكان كأنه يرى الطريق تحت الماء فيجتنب الحفر ويتقى أن يرجنا . هذا على أن رأسه لم يكن ظاهراً لنا لصغر جسمه ، فلا أدرى كيف كان يبصر الطريق ، وكأنى به قد حفظه عن ظهر قلب فليس يحتاج أن ينظر بعينه . وكان بارعا فى مجاورة الماء والروغان من الأوحال والمهابط ، فلم يسعنى إلا أن أسأله :

« هل تعرف الطريق الى مكة ؟ »

فقال : « أى نعم . متى تذهبون ان شاء الله ! »

قلت : « وفصيح أيضاً ! » ورقص قلبى اعجابا بمهارته وذلاقة لسانه

وحدثتنى النفس أن أخطف ثلاثة أو أربعة من أمثاله أخفيهم فى حقيبتى وأعود بهم الى مصر ، فما رأيت مثل براعتهم وخفتهم ونشاطهم .

واستقبلنا القائمقام على باب داره ، وتلكأت ادير عينى فى البيت من الخارج فارتد الى وتناول ذراعى ومضى يصعد بى السلم، وهو شيخ بلغ التسعين أو أربى عليها ، وأنا شاب لم أبلغ الأربعين ، ومع ذلك كان يثب على السلالم وأنا أرفع نفسى بجهد واضح ، وصعود السلم فى البيوت الحجازية عمل شاق ، لان الدرجات عالية جداً ، والبعض أعلى من بعض واضيق ، ـ وبعضها طولى او أقل قليلا ـ الى انفى ، وقد قلت وانا الهث بعدان بلغنا الدور الثالث حيث حجرة الاستقبال : لقدنجحت فى الصعود ، ففى وسعى الآن ان اشترك فى الالعاب الاولمبية . ولم أكن ادرى الى تلك الساعة ان الهبوط أشق بفضل هذا الارتفاع الذى يؤثرونه للسلالم . وان النازل اذا لم يحذر خليق ان يهبطها مدحرجاً عليها . وقد وجدت بالتجربة ان آمن طريقة للصعود هى الزحف على اليدين والرجلين.

واستغربت كثرة الأبواب للبيت الواحد ، وتعدد السلالم ، فقد تكون صاعداً فى وديعة الله وحفظه ، واذا امامك سلمان يذهب كل منهما فى ناحية فلا تدرى ايهما تأخذ : هذا او ذاك ؟ وخطر لى فى اول الأمر ان سلما يؤدى الى حجرات الرجال ، وان

الآخر يفضى الى مساكن السيدات ، ولكن خطر لى ايضاً ان الاكثار من السلالم المضلة والأبواب المحيرة ، قد يكون اثراً من ايام القلق وعدم الاطمئنان ، ايام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة ، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سربهم فلا يبعدان يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ليتسنى لهم ان يجدوا لهم ولذويهم مخرجا او مهربا اذا اقتحم عليهم الدار عدو ، اولعل الخاطر الأول هو الأصح فما ادرى ولا وجدت من يدرى . ومهما يكن من ذلك فان الدار هناك داران على الحقيقة ، وهى تبتدئ واحدة ثم تتشعب وتتعدد . ولا بد لهذا من حكمة خفيت على . اما السلالم فلا حكمة لارتفاع درجاتها الى هذا الحد المرهق الا ان تكون حكمة التزهيد فى مكابدتها مرة ثانية . وما اكثر ما كان يخيل الى ، اذ ننزل من احد البيوت ، اننا نهبط من سلم غير الذى صعدنا عليه ، حتى خطر لى ان ارسم بالقلم علامات على الجدران للتثبت وقطع الشك باليقين .

وبيت القائمقام انموذج حسن لغيره من الدور التى رأيناها مع تفاوت بينها فى السعة ؛ وطرازها جميعا شرقى عتيق ، واقرب ما يشبهه فى مصر البنى القديمة فى احيائنا الوطنية الصميمة من مثل الجمالية والخرنفش . وللبيت بوابة تفتح وتغلق ـ وتغلق اكثر مما تفتح ـ وفيها باب صغير يسمونه فى مصر « الخوخة » ثم الفناء فالسلم الذى

وصفناه لك ، ثم طبقات يغلب ان تكون اثنتين او ثلاثا ، وحجر الاستقبال فى الطبقة العليا : وغرف المائدة فى التى تحتها ، وقد يجتمعان فى طبقة واحدة فتفرد الأخرى للنوم ، والأثاث فاخر والذوق فيه سليم ، ليس فيه ذلك البذخ الذى ينم عن الخيلاء والذى هو اشبه « بالاعلان » ولا تلك الكزازة التى تقبض النفس وتصد القلب . وكرم العربى ليس كـكرم سواه فهو يكرمك ويبذل لك كل ما يدخل فى طوقه بل فوق ما فى مقدوره ، ثم كأن الذى يصنع هذا سواه ؛ من فرط السكون والوداعة وقلة التظاهر . وقد كنت كلما دخلت بيتاً يختلط على الأمر . فأحسبه بيت رجل آخر غير الذى اعرف اننا مدعوون عنده ، ذلك ان مضيفك لا يثقل عليك بالحفاوة ولا ينفرد بتحيتك ولا يبرز نفسه او يؤكد وجوده ، ولا تكاد تستقر فى مجلسك حتى يشيع فى نفسك الشعور بعدم الكلفة وبانتفاء القيود وبأن حريتك فى حديثك وجلستك وفيما تشتهى نفسك ، غير محدودة . وكان القائمقام على سنه وتقدمه وسمته وابهته يخف الى «الشيشة» ويجثو حيالها ليصلحها او يصنع فيها مالا أدرى فلست من هواتها ، وكان الواحد منا يهم بأن ينهض ليصده عن ذلك تنزيهاً له عن هذه الخدمة ، ولكن شيئاً فى عينيه كان يقعد بنا ويغلنا عن الحركة . ولم أر فى حياتى وجهاً ناطقاً بطيب الخيم وأريحية النفس وبالعطف الشامل والحب

الذى يريد ان يفيض على العالم كوجه هذا الرجل ، وقد انصرفنا من بيته بعد أول زيارة وقد عشقناه وشغفنا به ولهجنا بذكره ، فلما قال لنا المستر فيلبي . إن القلوب مجمعة على حب هذا الرجل واحترامه لم نستغرب فكأننا كنا نعرف هذا من قبل . وقد كان قائمقام فى عهد الحسين وابنه على المعزولين ، فلما جاء ابن سعود أقره فى منصبه كما اقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذين لامعنى لهما ولا دافع اليهما سوى الهوى ، وليس كل ما يروع المرء من القائمقام دماثته وسجاحة خلقه ، فان نشاطه وحيويته شيء عجيب ، لا لمن كان فى مثل سنه العالية بل لأى انسان فى اى سن ، ثم هو الى هذا واسع الدراية محيط بأخبار الأمم وسياساتها ، عارف بنياتها ومساعيها لطيف الحديث حلو المحضر ، يزيده وقاراً قليل من الصمم ؛ وسنه ابداً ضاحكة وعينه براقة ، فما اشوقنى لأن اراه وهو ثائر الغضب.

وكان قد اعد لنا غداء ولكننا قلبناه عشاء فقيل . « حسن . الساعة الأولى اذاً »

قلت الى جارى وقلت .

« سنموت هنا جوعاً »

فقال بلهجة الفزع . « كيف ؟ لماذا ؟ »

قلت . « الم تسمع ؟ العشاء الساعة الأولى . نحن الآن فى الساعة الأولى بعد الظهر فسننتظر اثنتى عشرة ساعة او أكثر حتى

نأكل مرة اخرى . هذا صيام ولسنا فى رمضان وانا محتج »

قال . « مهلا مهلا ؟ انها الساعة الأولى بالحساب الشرقى اى بعد المغرب بساعة »

فاقترح واحد ان نصلح ساعاتنا وان نجريها على الحساب الشرقى ، فسألته كيف نفعل ؟

قال . « تعتبر ان الشمس تغيب الساعة السادسة ـ صيفا او شتاء . هكذا يفعلون هنا . المغيب الساعة السادسة (افرنجية) بلا تغيير على مدار السنة وعلى هذا فأجر حسابك »

فحرت لأن الشمس تغرب فى الوقت الذى تشاء ، لا فى الساعة السادسة كما يريدها أهل الحجاز ، وكانت ونحن هناك تستحسن ان تغيب فيما بين الخامسة والسادسة ، وهى فى الصيف تتلكأ احيانا الى السابعة فلم ادر ماذا أصنع ؟ اتكون الشمس غاربة واقول انا ـ مجاراة لساعات الحجاز ـ انها لا تزال طالعة ؟ ثم كيف اوفق بين رقم الساعة والوقت كما يبدو لعينى؟ الحق ان هذه كانت عقدة .

ولما صرنا فى بيوتنا قلنا نزور القنصلية ، ونؤدى واجبنا ونحيى بلادنا فيها، وكان المطر قد عاد ينهمر ، فسألنا حسين افندى العوينى « هل القنصلية بعيدة من هنا؟ »

قال . « لا . . (ممطوطة) ليست بعيدة ولكن المطر شديد والطريق

أوحال »

وقام الى التليفون ـ اوالهاتف كما يسمونه أحيانا ـ ليدعو السيارات لتقلنا الى القنصلية وليس للتليفونات اوللهواتف ارقام تميزبها بل عليك ان تدق الجرس فيجيبك « المركز » ـ وهو يقابل عندنا السنترال ـ فتطلب منه ان يصل ما بينك و بين فلان فى بيته او دكانه اومكتبه اوعيادته ـ كما تشاء و يبطىء عليك العامل فتناديه : « يافلان ماذا جرى؟ اعطنى بيت فلان واصنع معروفا» ذلك انك تعرف، عامل التليفون ـ لا عاملته ـ كما يعرفك . وكان المطر قد أفسد اسلاك التليفون وعطل المخابرات ، فوقف حسين افندى العوينى ساعة يعالج الكلام ـ ساعة كاملة بلا ملل او ضجر ومن غير ان يفكر لحظة فى الجلوس او الاستراحة .

واخيراً بعث بخادمه فجاءت السيارات وركبناها وصاح حسين افندى بالسائقين .

« الى القنصلية المصرية »

فدارت السيارات وتحولت امام البيت، ثم جرت امتاراً ووقفت وقيل . « انزلوا ! تفضلوا ! »

قلت . « ماذا ؟ هل اصاب السيارات عطب او تلف ؟ ».

قالوا « بل وصلنا ! »

وصلنا ؟ نعم . فما كان بين البيت والقنصلية التى ركبنا اليها

بعد لأى ، سوى عشرة امتار !

* * *

وقلت لما صارت الساعة السادسة والنصف (افرنجى)
« الآن فانهضوا الى العشاء فى بيت القائمقام » :
فقيل. بل لا يزال الوقت فسيحاً ولم تستوف الساعة الأولى دقائقها
قلت. ولكنها فعلت وقد غربت الشمس منذ ساعة تماما .
قالوا . كلا لم تغرب إلا منذ نصف ساعة .
فأسلمت أمرى لله ولساعات الحجاز التي لا تعبأ بنهار او ليل
والتي يجرى الزمن على وجهها كما لا يجري فى بلادنا على وجوه
ساعاتنا .

* * *

وليس فى نيتى ان أصف كل وليمة حضرتها او دار دخلتها فان هذا لا آخر له ، فقد كنا نتغدى فى بيت ونتناول الشاى فى بيت والعشاء فى ثالث ، وربما تغدينا فى جدة وتعشينا فى مكة ، او بالعكس . ولكنى سأذكر القليل الذي يدل على الكثير وينبئ عنه . فقد سمعت ان فريقاً من المصريين لا يصدقون ان أهل الحجاز يعرفون الأكل على الطريقة الحديثة فلهؤلاء اقول . ان الحجاز ليس مجهلا من مجاهل آسيا او افريقيا ؛ وانه وطن الاسلام واليه يحج المسلمون من اقاصى

الأرض وأدانيها وانه بلاد متحضرة سوى انها فقيرة ، والفقر لايمنع الاناقة ولايحول دون التهذيب . ومن الغرور الذى لايشرف صاحبه ان يتصور المرء ان الحجاز ، لأنه على البحر الأحمر ولأنه ليس مصيفاً او مشتى للمترفين منا وبغاة المراقص وطلاب الملاهى ، يجب من اجل ذلك ان يكون مستوحشاً وعلى الفطرة الأولى . وليس فى الحجاز فنادق او مطاعم عامة ، ولكنا دعينا فى كل مكان حتى فى قلب الصحراء وتحت الخيام — الى موائد على الطريقة الغربية عليها من الآكال ما يندر ان تقع عليه العين او يذوقه اللسان حتى فى مصر المتحضرة .

وهم لايراعون فى الجلوس الى الموائد ترتيبا معينا ، وكانوا معنا على الأقل أحذق وأدق مجاملة من أن يتوخوا ترتيبا ، فكان من شاء يجلس حيث يشاء ، حتى لايشعر أن غيره مفضل عليه أو مقرب دونه أو مختص بايثار . والقوم فى الحجاز لا يأكلون سوى مرتين فى الاربع والعشرين ساعة : مرة حوالى الساعة العاشرة والثانية حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة . وأحسب أن جو البلاد هو الذى اقتضى هـــذا التخفيف ، ولكنهم توخوا مثل عاداتنا فى مصر من أجلنا . وغيروا مألوفهم وجروا على مألوفنا .

والأطعمة التى تناولناها فيها صنعة حسنة وذوق يجمع بين الاسلوبين العربى والتركى . وقد يحدث أن يقدم لك بعد بضعة

ألوان طعام حلو فتحسب أنك قد قاربت النهاية ويسرك ذلك فرارا من كظ المعدة بألوان عدة لاآخر لها واذا بهم بعد الحلوى يكرون الى اللحوم والخضر وما الى ذلك على نحو ما كان يجرى هنا فى مصر فى الأعراس على الطريقة التركية القديمة .

وأحب أن أعين القارئ على تصور حالة جدة وعمل البلدية فيها . فأقول ان الطرق غير مرصوفة كما هى فى مصر ولكنها نظيفة على الجملة ، وقد أصارها المطر بركا وبحيرات ، وهو مطر ملأ صهاريج الثغر كلها ، ومن بين هذه الصهاريج واحد سعته ـ بحسابهم ـ مائتـــان وأربعون الف « صفيحة » فاذا اعتبرت أن « القربة » تعادل اربع « صفائح » كانت سعة الصهريج ستين الف قربة ، وقد قيل لى ان الماء الذى فى الصهاريج يكفى موسم الحج ، وانما ذكرت الصهاريج ومثلت لسعتها ليتسنى للقارئ ان يكون لنفسه فكرة عن المطر وما صنع ، فقد هدم بيوتا وقوض سقف بعض الأسواق ، ولم يبق بيت لم يقطر الماء من سقفه ، والبنى هناك ضعيفة ، وقد قضينا الليلة الأولى فى جدة فأصبحنا وقد انقطع المطر فانطلق عمال البلدية ينزحون الماء ويجرفون الأوحال ، فلما جاء العصر عادت الطرق نظيفة مأمونة . واحسب انهم ضاعفوا الهمة من اجلنا ، ولكنه نشاط على كل حال.

والأغنياء هناك لايدعون الفقر ولا يكتمون مالهم وان كانوا لايضايقون الناس بمظاهر البذخ . والتجارة سوقها رابحة

مع الغرب والشرق . والأحاديث صريحة والألسنة طليقة ، وفى هذا دلالة على الاطمئنان ، وقد كان الناس على ما علمت فى العهد السابق يخفون امو الهم و يتظاهرون بالمتربة ورقة الحال خوفا من الابتزاز او الاقتراض الذى هو فى حكم الاغتصاب والمصادرة ، اما الآن فيقول لى بعض الأصدقاء : ان الحكومة فى آخر العام قد تقفر خزائنها فتحتاج الى المال فتقترض من الأعيان حتى اذا جاء موسم الحج ردت اليهم ماأقرضوها بلا ربا

وقد سألنا — فى طريقنا الى مكة — سائق السيارة وهو شاب حدثنا انه كان احد افراد الفرقة الموسيقية فى جيش الحسين : عن الفرق بين العهدين فكان جوابه ان الأمن مستتب على احسن حال وانه ما من احد يجرؤ ان يسرق او يمد يده الى شىء فى الطريق

فقلنا له . واى العهدين خير

فقال . «لكل زمان دولة ورجال»

فصرفنا السرور بتمثله بالشعر والتعليق على ذلك عن سؤاله عما يعنى .

بين جدة ومكة

الأرض ـ فى جدة ـ دائرة . هذه حقيقة لم يسعنى ، بعد يوم واحد ، إلا أن اسلم بها وأقطع بصحتها . وقد تكون الأرض هنالك كروية أيضاً ـ أو كرية ، فما أدرى أيهما الذى لا غبار عليه ـ بل هى كروية أو كرية فى بعض المواضع ولا سيما فى الشوارع ولها محاور حقيقية لاخيالية وإن كانت لاتدور عليها ، ولكنها دائرة على التحقيق ، اذا كان هنالك شك فى كرويتها ، على الأقل كلها . وما أسرع مافطنت إلى هذه الحقيقة الجغرافية الخاصة فقد كنا مدعوين الى الشاى فى وزارة الخارجية ، فلما دنا الموعد أشرفت من النافذة فلم أر السيارات ، فرددت البصر الى التليفون فاذا هو لايزال فى مكانه ، ولكن صاحب الدار لم يكن حاضراً ، والتليفون فى الحجاز يتطلب مهارة كانت تنقصنا ، ويحتاج الى معارف لم يتسع الوقت للاحاطة بها ، وكان الخادم قريباً ولكنى استحييت أن أطلب معونته لئلا يتوهمنا بعض الهمج من افريقيا فسألت الله العون ومضيت إلى التليفون ودققت الجرس مرة ، فلم يجبنى أحد ، فدققته ثانية فلم يعبأ بى مخلوق ، فهززت « الشنكل »

وأنا يائس ، أقول لنفسي أن من لايحفل الجرس أولى به ألا يكترث «للشنكل» وعاودت الدق والهزمرات ، ثم وضعت السماعة وجلست الى جانبه .

فقال لى أحد الحاضرين :

« لم سكت ؟ دق له ! »

قلت : « أأظل أدق الى المغرب ؟ »

قال . « لا سيدى . دق الجرس وناده ! »

فراقني هذا ونهضت مرة أخرى وعدت الى الجرس أدقه واقول :

« ياأخانا ! ياحبيبي ! ياسيدى ونور عيني وتاج راسي ! »

فلم يعجبه الفصيح الصحيح من اللغة ، فقلت أخاطبه بالعامية لعله لها أفهم .

« ياأخينـــا ! إنت ياشيخ انت ! ياللى جوه ! نبحت حسى ووجعت قلبي . رد ياأخى بقا ، الله يقطعك ! »

فلم تنفع هذه الرقية ، وهممت بالقعود مرة أخرى فقال صاحبي :

« لالالا . ناده باسمه ياأخى ! »

قلت : «حسن . وهل مفروض فى المصرى الذى يأتى الى جدة أن يعرف اسم عامل التليفون ؟ لابأس ! » ووضعت فمى على البوق وجعلت أصيح بما خطر لى من الأسماء لعل واحداً منها يوافق الصحيح .

« يامحمد . يا ابا بكر . ياعمر . ياعثمان . ياعـــلى . يامعاوية . (لزملائى : يظهر انه أعجمى) ياناصرخان . ياأزدشير . ياشتربة . انطق قبحك الله ! (هل فيكم من يحضره اسم آخر فقد أطار هذا اللعين محفوظى ؟ لا بأس) يابطليموس . . . »

وهنا قاطعنى صاحبى وانتزع السماعة منى و وقف يقول

« يامركز . . . يامركز . . . »

فسألته « هل هذا اسمه ؟ »

فلم يعبأ بى ومضى يقول .

« أجول لك . يامركز . أعطنى القناعة . نعم القناعة . رجاء »

فوصله بشركة القناعة للسيارات .

ولـكنى لم أركب سيارة ، لأن الجهد العقيم الذى بذلته أمام آلة التليفون أحوجنى إلى الرياضة فقلت أتمشى الى الخارجية فهى قريبة منا . فوافقنى اثنـــان وخرجنا وسرنا على بركة الله نميل مع الطريق حيث يميل ، ويصف بعضنـا لبعض ماشاهد الى الآن وماذا كان وقع ذلك فى نفسه ، وطال الأمر علينا وخيل إلى أننـا ندور ونعود الى حيث كنا ، فخطر لى أن أسأل لنهتدى ، فانتظرت حتى لقينا فتى فقلت له :

« هل لك أن تدلنا على و زارة الخارجية ؟ »

فحملق فى وجهى وقال.

« إيش تقول ؟ »

قلت : « وزارة الخارجية التي فيها حضرة صاحب المعالى الوزير ف . . . »

فجذبنى أحد الزميلين وقال .

« ياأخى انت فين ؟ »

فغاظنى ذلك واستثار عنادى فقلت :

« أسكت أنت من فضلك . قل لى ياصاحبى . صف لى الطريق »

فقال كلاما مغمغما قدرت انه الوصف الذى أطلبه وأشار بيده فقلت لصاحبى .

« هيا بنا . لقد عرفت منه الطريق »

فقال أحد الرفيقين :

« ولكن ماذا قال لك ؟ »

قلت : « إن ماقاله لى لايهم . ويكفيك أنى فهمت مراده . »

فقال : « ليتنى على يقين من ذلك . فان الواقع أننا نسير فى دائرة . وقد رأيت هذا المسجد أربع مرات على الأقل . »

فأكدت له أن هذا كذب لايليق ولا يشرف بلاده التى يمثلها هنا ، وان كان لم يعد الحقيقه فيما قال . وصار لابد من اجتناب الرجوع الى هذا الشارع اذا أردت أن لايشمت بى صاحبى . فملت بهما الى طريق جديد لم نضرب فيه من قبل واذا

بنا بعد ثلاث دقائق نعود إلى المسجد .

فقال صاحبي بلهجة الشامت المنتقم :

« ماقولك الآن ؟ أليس هذا هو المسجد بعينه ؟ هذه خامس مرة أراه فى ثلث ساعة »

قلت : «محال . أنه ليس أكثر من المساجد فى هذه البلاد وهى جميعاً متشابهة »

واسكته بهذه المغــــالطة وعمدت الى أول رجل صادفنا بعد ذلك فسألته عن الطريق الى وزارة الخارجية ، فصاح بى صاحبي :

« مادمت تقول « وزارة الخارجية » فلن يفهم كلامك أحد . يا أختى أنت فى الحجاز لا فى مصر»

وهكذا ظللنا نسأل والناس لايفهمون عنا وأخيراً يشيرون بايديهم فنمضى ونكر الى حيث بدأنا . فاقتنعت بحقيقتين : أولاهما أن الارض هنا دائرة فى كل ناحية . وقد أسلفت القول فى ذلك : والثانية أن على من يسأل الناس عن الطريق أن لايسير الى حيث يشيرون.

والمدهش أننا مررنا بالخارجية وكنا نسأل الناس عنها ونحن واقفون أمام بابها ! وفى آخر مرة كنا على افريزها ، لأن سيارة كانت مقبلة نخفنا أن ترشنا عجلاتها بالوحل فصعدنا فوق الافريز لنتقى ذلك واذا بها تقف وينزل منها بعض زملائنا .

وقد رأيت « برج بيزا » المائل ، من نافذة وزارة الخارجية أو دارها أو لا أدرى ماذا يسمونها هناك . وكنا نتناول الشاى جماعات جماعات على موائد صغيرة ، وكنت قريباً من النافذة فنظرت فاذا مأذنة مائلة جداً . فأطلت النظر اليها وأنا أتوقع ان تنقض ، فقال لى جارى :

« ماذا يروقك ؟ »

قلت : « ألا ترى هذه المأذنة المائلة ؟ إن أمرها عجيب . ولا ادرى ماذا يمنعها أن تسقط ؟ لعلها لا تريد أن تزعجنا »

فنظر جارى وعجب ، ومن حقه ذلك ، فقد كان انحرافها شديداً ، فسألنا واحداً من أهل الحجاز عنها فابتسم وتنحنح وقال كلاما لا يقنع ، واعتذر بأن المبانى فى الحجاز ليست متينة أو حسنة جميلة كمبانى مصر ، فبينا له أن المتانة والجمال لا شأن لها ولا قيمة ، وأن المسألة أن هذه المأذنة لا يمكن أن تظل ذاهبة فى الهواء لأن مسقطها خارج القاعدة ، فاذا كانت مع ذلك ستبقى قائمة فتلك معجزة ولا شك ، ومن حق الحجاز حينئذ أن يباهى بها برج بيزا المائل بل أن يدل بها عليه .

ولما صرنا فى الطريق مرة أخرى رفعت عينى الى المأذنة فاذا هى مستقيمة لا ميل فيها ولا انحراف ، فرجعت أعدو الى الخارجية فاذا هى تبدو من النافذة مائلة ، فانحدرت الى الشارع وأجلت

النظر فى بناء الخارجية فلم أر شيئاً يلفت النظر فخرت ، وأخيرا بعد أن حاورتنى المأذنة وخايلتنى حتى كاد يطير رأسى حللت اللغز . ذلك أن جدران الغرف غير متساوية الارتفاع فأرضها مائلة ؛ فاذا جلسنا فيها بدت لنا الاشياء منحرفة .

***

وخرجنا يوما نتنزه على امتداد الشاطىء فيما وراء جدة ، ولجدة سور قديم لاخير فيه اذا كان المراد به الحماية ، وكان هناك ـ فى السور ـ باب كبير للدخول والخروج ، ومنه يأخذ المرء أحد الطريقين الى مكة أو المدينة ، فلما جاءت الحكومة السعودية رأت أن بابا واحداً لا يكفى ، ففتحت بوابتين كبيرتين : واحدة للدخول والثانية للخروج ، وأقامت بينهما مخفراً يسأل الرائح والغادى ويرقب الحركة بينهما ، والأمر تافه لا يستحق الذكر ، ولكنه بعض التنظيم الذى أدخلته الحكومة السعودية وارتاح به الناس ، وهم هناك يضيفون هذا الى امثاله ويتخذون من ذلك كله شواهد على اتجاه النية نحو الاصلاح ، بقدر المستطاع .

ورأينا على مسافة نصف ساعة من جدة بيوتا بعضها من الشعر ، والبعض جدرانه ـ إن صحت التسمية ـ من جوانب صفائح الغاز ، وسقوفها كذلك من الخيش أو هذه الصفائح ، وبعض البيوت من اللبن ، وخلال هذه البيوت الغنم والجمال ، وحولها

الكلاب ، ولكن المطر هـــدم البيوت المبنية وأبقى على الشعر والصفائح . وقد وقفنا نتأمل هذه البيوت المتقوضة وخيل الى وأنا أحدق فيها أنى صرت للشعر العربى أحسن فهماً ، بعد أن رأيت بعينى ما الطلول الدوارس، وهو احساس ظل يلازمنى وأنا فى الحجاز فكلما رأيت منظراً من الجبال أو السهول والأودية أو الكثبان أو المراعى أو الدور أو الخيام ، زدت شعوراً بصدق تصوير العرب لحياتهم فى أشعارهم ، ولم أستغرب شيئا مما كنت أمله واستثقله من لجاجتهم فى وصف الطلول والاسفار والرواحل والولع بذلك وايثاره وتقديمه، وصار لهذا وماإليه معنى جديد عندى ومساغ الى نفسى، وقد كنت حين أطالع شعر العرب ـ قدماء أو مولدين ـ أتخطى هذه الأوصاف اذ كنت لا أجد فيها متعة ولا أراها تنقل لى صورة لها قيمتها فى نظرى، فالآن أعود الى هذا الشعر الذى كنت لا أطيقه فأرى الحياة تدب فيه وتفيض منه ، وانما أعنى شعر القـــدماء لا المقلدين من المولدين أو المحـــدثين الذين يقولون على السماع والمحاكاة

وفى السهل الواقع شرق جدة ثكنة للجنود واسعة رحيبة ، ومركز للاسلكى وحظيرة للطيارات . وليس فى هذا كله ما يستوقف المرء ، فما منه شىء غريب ، ولكن هناك أيضا على مقربة من الثكنة فضاء رحيب مسور سد بابه بالحديد، وكان الناس يفدون

اليه زائرين بل حاجين ، لأن فيه على المشهور هناك قبر حواء ، وقد هدمه السعوديون ولم يبقوا من قبابه شيئاً ،ومنعوا الناس أن يزوروه . وحدثني بعض من شهدوه قبل تقويضه أن طول القبر أربعون قدماً ، وانه كانت هناك عدة قباب صغيرة على رأسها وصدرها الى آخر جسمها ، وكان الاعتقاد السائد أن أمنا حواء بهذا الطول ، ولهذا مدوا قبرها وذهبوا به طولا وعرضاً ، فاذا صح هذا ، فقد كانت أمنا إذاً مهولة ، ولا عجب أن تلد كل هذه الخلائق وأن تكون أم هذه الأناسي كلها فى الشرق والغرب ، فليت من يدرى كيف كان آدم ؟ لاشك أنه كان الخل وأهول ، ومع طولها وعرضهما خدعتهما الحية وأخرجتهما من الجنة . فليست العبرة اذن بالطول! وفى هذا عزاء لى عن قصر قامتى ! .

ولم أر فى الحجاز امرأة ولا بائعاً متجولا ولاشيخاً هماً يقوم على الراحتين ، ولا جنازة ميت ، فأما المرأة فلم استغرب الحجاب المضروب عليها ، فنحن فى مصر لايزال منا من يحجب المرأة ويوصد عليها الأبواب . وأما الباعة المتجولون فلا حاجة بأحد اليهم فى مدينة صغيرة لم تتباعد أطرافها ولم تفش فيها المدنية ولا يزال الزمن يدور فيها متمهلا متباطئا . ولعلى لم أر مقعداً أوسطيحاً أو كسيحاً لأنى لم ابغهم حيث يكونون ، ولكنهم على كل حال لايرون فى الطرقات وعلى ابواب المساجد وافاريز الشوارع .

ولكنى استغربت ان أقضى ستة ايام فى الحجاز فلا تقع عينى على جنازة ميت ولا اسمع ان واحداً مل هذه العاجلة وآثر عليها الآجلة، ولا أدرى ماذا يغرى الناس هناك بالبقاء ويحبب اليهم الدنيا وهى بلاقع، على حين يستطيعون ان ينتقلوا فى طرفة عين الى الفردوس وقصوره وحوره وولدانه وانهاره من لبن وعسل وخمر! ولقد اضطررت ان اسأل عن ذلك فضحك الرجل وربت لى كتفى وهم أن ينصرف عنى. ولكنى تعلقت بهوسألته.

« اصدقنى. هل أنتم تموتون فى سركم؟ »

قال: « فى سرنا؟ ماذا تعنى؟ »

قلت: « أعنى انكم تموتون أولاتموتون »

قال: كيف لانموت؟ ان الموت حق »

قلت. « لست اراه حقا هنا »

قال. « استغفر الله العظيم. يارجل؟ »

قلت. « استغفر الله الف مرة. ولكن لماذا لاتموتون؟ »

فقال مبتسما. « هل تكره لنا الحياة؟ »

قلت. « لا أكرهها لكم، ولكنى أكره أن نموت دونكم. لماذا يكون الموت حقا علينا وحدنا؟ »

وقد أبوا أن يموت منهم ولو واحد فقط، ليقنعنى. حتى ذلك الطبيب الذى كاد يقتلنى بمصليه، لم تهن عليه نفسه ولو اكراما

لخاطرنا أو فى سبيل التدليل على صحة النظرية — فهى فى الحجاز نظرية فقط — القائلة أن الموت حق . كأن وظيفة الطبيب أن يميت ولا يموت .

* * *

وسيذكرنى الحجاز دائما بأن عصاى قطعت الطريق بين جدة ومكة — قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية ، وردت الناس من الجانبين ، ووقفتهم صفين من الناحيتين متقابلين على أقدامهم الا من شاء أن يضرب فى طريق آخر ويسير على نهج جديد .

وشرح ذلك أنا فى اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ الطويل ، صاحب شركة القناعة للسيارات ، وقد كان على عهد الملك حسين مديرا للجمارك وكان صاحب مال وفير فأتى عليه الاقتراض منه ؛ فلم ينقذه الا انقراض حكم الحسين وابنه علي ومجيء العهد السعودى بالأمن والطمأنينة وحرية التجارة ، فاتجر بالسيارات وعاد فوقف على رجليه . وكان المقرر أن نركب الى مكة بعد الغداء مباشرة ، ولكن الأكل طال والألوان تعددت فنسينا مكة وذهلنا عن كل شيء ، وأخيرا قمنا عن المائدة آسفين متلفتين متلكئين ، وذهبنا الى بيوتنا نخلعنا ثيابنا ونضونا كل ما على أجسامنا ولففناها — أعنى أجسامنا — فى مشامل — كالبشاكير — غير مخيطة ، حتى اقدامنا

خلعنا احذيتها واعتضنا منها السباعيات ، وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد تدخل فى بعضها الاصابع ويلتف البعض حول المفاصل ، ورمينا طرابيشنا ، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقائب وتوكلنا على الله .

وركبنا سيارة لاأدرى من أى طراز هى ، وانما الذى أدريه انها كانت فخمة وجديدة ، وأنها لم تخرج إلا فى يومنا ذاك ، وقلنا للسائق سر على بركة الله وبقوة البنزين الذى خلقه الله ، واعلم اننا سنتعشى عند سمو الامير فى قصر جلالة الملك باذن الله ، وأن عليك أن تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ثم ارتداء الثياب .

فقال : « الله معنا . ان السيارة جديدة وليس فى وسعى أن أسرع بها لئلا تتلف »

فقلنا . « فلتتلف . فان موعد الأمير لا يمكن ارجاؤه »

وما زلنا به نلح عليه ونحاوره ونداوره حتى أطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو . وجزنا أول محطة فى الطريق ومضينا نبغى الثانية واذا به يطل ثم يقف ويلتفت الينا ويقول .

« حريق . انزلوا » .

ففتحت الباب من ناحيتى وأسرعت فنزلت ، ويظهر أن عصاى التى لم أعن بها من فرط الفزع ، سقطت الى الأرض ، وصار فى وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة ان ننظر اليها وان نرى الدخان

صاعداً من بين عجلاتها ، والسائق يهيل عليها الرمل عوضاً عن الماء فانقطع الدخان وشرع يعالجها ، وكانت سيارتان قد ادركتانا ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض افندى المصور أن يرسمنا ونحن محرمون .

ولا أطيل . ركبنا السيارة واستأنفنا السير - على مهل . وأنسيت العصى لأن الخوف من احتراق السيارة صرفني عنها ، وجعلت وكدى طول الطريق ان أخرج وجهى من نافذة السيارة وانظر الى العجلة من ناحيتي وان اشم . لعل دخانا صاعد فأنبه السائق .

والطريق الى مكه طريقان واحد للسيارات وهو حسن ومكبوس بما نسميه « وابور الزلط » وقد رأينا (الوابور) يستريح عند سفح الجبل ، والآخر للجمال والمشاة ، على يميننا ويسارنا . والجمال التى رأيتها صغيرة وهى أشبه بالبعران فى بلادنا ، وأحسبها كذلك لضعف المرعى وقلة القوت ، وهى تسير قوافل قوافل . وقد عددت خمسين جملا فى قافلة ، وكانت تحمل بضائع شتى فى الصناديق والاكياس أو الغرائر ، وليس معها سوى طفل واحد هو كل حرس هذه القافلة المغرية

وليس أحلى ولا أفتن من منظر الأطفال حين يحاولون ركوب الجمل ، والطفل لا يبرك الجمل حين يريد أن يصعد الى ظهره ، وانما يعمد اليه وهو سائر ويتعلق بذيله ويتخذ من هذا

الذيل حبلا أوسلما أو مرقاة مستعينا بقدميه يخطو بهما على فخذى البعير كأنهما جداران ، ثم اذا هو فوقه . وأمتع من ذلك وأبعث على الدهشة أن ترى بعيراً على سنامه رحل وعلى عسيبه ـ عظم الذنب ـ طفل والعسيب متحدر وعظمته حادة فكيف يقعد عليهما الطفل وماذا يمسكه فوقها ؟ ساقاه يقبض بهما على الجانبين .

وبلغنا الشميسة قبيل الغروب بدقائق ـ اذا اعتبرنا ساعتى وهى بالحساب الغربى ـ وقبله بأكثر من نصف ساعة إذا اعتبرنا أن الحجاز يين يحتمون على الشمس أن تغيب فى الساعة السادسة لا فى منتصفها . وهناك فى الشميسة استقبلنا وفد طويل عريض من مكة جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا ، وبينما نحن نتحادث دعى مدير الشرطة أو لاأدرى من هو الى التليفون ، فأستأذن وذهب ثم عاد يسأل :

« هل لأحدكم عصى ؟ »

قلت « نعم انا لى عصا ولكنها والله فى السيارة . تركتها فيها ، لأنى لا أدرى هل يجوز أولا يجوز أن يحمل المحرم عصا »

« قال : « ما أوصافها ؟ »

قلت : « وما شأنك أنت بالله ؟ هى عصى والسلام »

قال : « لا لا لا . لقد وجدت عصا فى الطريق قرب الرغامة فقطعت على الناس السبيل »

فضحكت وقلت « أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون ولا تخرج على النظام ولا تعرف قطع الطريق »

فلم يجد حتى بابتسامة ، وضاعت على النكتة فى هذا البلد الجاد، وقال : « ابحث عنها من فضلك فان الطريق مقطوع لا أحد يروح ولا أحد يغدو »

فهرولت فى مشاملى إلى السيارة فلم أجد العصى فعدت وقلت له : « هى عصاى قاطعة الطريق، فاسمح لى أن أعتذر بالنيابة عنها »

فمضى عنى إلى التليفون ، وخفت أن يأخذونى بها ويجزونى بما صنعت فان للقوم هنا شريعة غير القانون المدنى ، فعدوت وراءه وأسررت اليه وهو يتكلم فى التليفون :

« أذكر من فضلك أن الله تعالى يقول فى كتابه المنزل « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

فلم يزد على أن التفت الى وقال :

« هل نردها الى جدة أو ندركك بها فى مكة »

فقلت : « لست أريدها والله فانها فاجرة كما ترى . وأخشى أن ينزو برأسها خاطر آخر ، أفلا يمكن دفنها فى الرمال مثلا ؟ »

فقال للتليفون لا لى : « أرسلها مع الشرطة الى الضيافة »

فصحت به : « لا لا . ردها الى جدة من فضلك فحسبى ماصنعت

فقال لمخاطبه فى التليفون : « بل ردها الى بيت العوينى فى

جدة . رجا »

ثم التفت الى وقال : « هيا بنا فقد تأخرتم »

ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى وما صنعت ، فقد كنا فى الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء يبرد به جوف هذه السيارة الذى يغلى ، نصيح بأحد الواقفين هات ماء »

فلا يتزحزح ولا يدنو منا بل يقول وهو واقف مكانه :

« تفضل »

فينزل السائق ويجىء منه بما يريد . وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق فقيل لنا بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شىء من الأدوات أو مما تحمل السيارة فيتهم الرجل بالسرقة . وجزاء السارق هناك قطع اليد ، وقد أمن ابن السعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين . بقطع يد السارق وبما يسمونه التصبيحة .

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وقد قسا ابن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا لى أن رجلا جاءه بكيس فيه بن وقال له : « هذا كيس بن وجدته فى الطريق »

فسأله : « ومن أدراك أن فيه بنا ؟ جسسته أو فتحته ونظرت

فيه ، ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن لأخفيته ولم تظهره ولم تسع به الي . كلا ! حتى الجس لايجوز . اقطعوا يده .

ومن أجل ذلك يقع الناس على الشيء في الطريق فلا يقربونه أبدا ، بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا الى طريق آخر غير الذى فيه هذا الشيء المطروح حتى يمر شرطي فيحمله ويبحث عن صاحبه ، أو يمروا هم بالشرطي فيبلغوه . واذا لم يقعوا على صاحبه نشروا في « أم القرى » اعلانا تحت عنوان « لقطات »

أما التصبيحة ، فشيء آخر. تكون هناك عشيرة ضربت بالسطو فينذرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة ، فان كفت وتركت الناس آمنين واستقامت على الهدى فبها ولله الحمد ، والا همس في أذن واحد من قواد جيشه أن يصبحها فيذهب الرجل في فرقة من الجيش من غير أن يفضى الى احد بغايته ومقصده ، ويجنب في طريقه الى العشيرة مواضع الماء ، ويضرب بجيشه في الصحراء التي لا تطؤها قدم ليظل أمره خافيا وغايته مكتومة ، ويقع على العشيرة في الفجر فيصلى بجيشه ثم يطلق عليها رجاله فيصبحونها وهم يصيحون :

« هبت هبوب الجنة . أين أنت ياباغيها » .

« خيالة التوحيد اخوان من أطاع الله »

فلا يبقون ولا يذرون

ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مذ دخل الحجاز. لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه الى تصبيحة أخرى.

***

والطريق الى مكة واد غير ذي زرع، وعلى جانبيه جبال شتى الشكول متفاوتة العلو، ومناظرها توقع فى الروع أنها غاصة بالمعادن المختلفة، ولست أعلم أن أحداً درس طبيعتها وفى الطريق محطات أو استراحات، يجد فيها المسافر القهوة والشاى، ويستطيع أن يبيت فيها اذا أدركه الليل أو التعب أو كلت مطيته، وكبراها بحرة فى منتصف الطريق، ولها سوق دكاكينها من الخيش والخشب، ووراء السوق على الجانبين البيوت الساذجة، وفيها عيادة أنشأتها الحكومة أو مستشفى صغير لمن يقعد به المرض فى الطريق، من الحجاج أو الأهالى. وفى كل محطة مخفر وتليفون. ولم أستغرب هذا الطريق الموحش ولم أجد فيه جديدا، فانى فى مصر أعيش فى رقعة من الصحراء والى جانبي الجبل.

وقد دخلنا مكة بعد العشاء.

فى مكة

دخلنا مكة لاأدرى متى ؟ ـ بعد العشاء أو بعد المغرب ، فى الظلام والسلام ـ فما فى الوسع أن يعتمد المرء فى الحجاز على ألوان النهار والليل لمعرفة الوقت ، أو يركن الى الشمس أو حتى الى القمر ، وقد انتهيت بعد ثلاثة أيام الى إساءة الظن بالشمس والايقان باختلال دورتها . وهل كان فى مقدورى أن أكذب ماأجمعت عليه ساعات الحجاز الجديدة وأن اصدق هذه الشمس القديمة وحدها ، ولم تكن ساعتى على يدى فقد تركتها مع ثيابى لما لففت نفسى فى مشامل الاحرام ،فلاعجب اذا كان الأمر قداختلط على فلم أعد اميز بين النهار والليل .

بعدالعشاء إذاً أو بعدالمغرب ـ كما تشاء فكله ليل ـ شارفنا مكة فنفخ السائق فى بوقه تنبيهاً وزجراً للناس عن الاحتشاد فى طريقه، وفتحت أنا الشباك لأنظر فلم تأخذ عينى شيئاً ، حتى رمال الطريق وصخور الجبال لفها الظلام فى شملته ، فاضطجعت وقلت إن لى شأناً غير شأن أصحابى ، هم يدخلون مكة دخول الغريب عنها فمن حقهم أن يتطلعوا ويشرفوا وينظروا ويتأملوا ـ اذا وسعهم ذلك ـ ولكنى

أنا ابن هذه البـلاد ، بل ابن مكة بالذات ، فان جدتى لأمى مكيـة زوجوها وهى بنت عشرين سنة رجلا فخلا من أهل المـــدينة فنشزت فطلقوها منه ثم احتملوها الى مصر بعد وفاة أبيها وخراب بيته وتجارته فتزوجت جدى ، ثم ان أبى مازنى مثلى ، وقد انحدرت اليه هذه « المازنية » ثم إلى بعده على نحو ما انحدرت الينا «الآدمية»، وهـذا كله مفسر فى « صندوق الدنيـا » فيرجع اليه من شـاء من طـــلاب هذه الأنساب العريقة . وقد أسلفت القول على قبر حواء جدتى العليا ولست أكتم القارئ أنى تأثرت جداً وأن الدمع غلبنى حين الفيت نفسى ـ أنا الغريب البعيد عن وطنى وأهلى واصحـابى وعن كل من يعنى بى أو يكترث لى ، واقفاً أمام قبر جدتى ! وصحيح أن القرابة بعيدة ، ولـكنها على كل حال ، من رحمى ، أو أنا على الأصح من رحمها . ولم يخالجنى ظل من الشك فى أن هذا قبرها على التحقيق ، فقد حن الدم فى عروقى اليهـــا ، وكان حنينه بالغريزة التى لاتخطئ ، ولن يكذب الدم فانه ليس بماء ، وشعرت بأن معين حبى البنوى لها قد جاش واضطربت أعمق اعماقه وطغى وفاض من مقلتى فاستندت الى حـديد البـاب وأسبلت الدمع . نعم بكيت أسفاً ، لأن جدتى لم يطل بها العمر حتى ترانى ، كلا . ومما ضاعف أسفى أنى انا ايضاً لم يفسح الله فى أجلى حتى كنت أراها ـ فماتت قبل أن يخطر لأبوى أن يجيئا بى ببضعـة آلاف

من السنين كان من السهل أن تطوى. ولم تكن الدنيا تخسر شيئاً لو أنها لم تكر عليها. بضعة آلاف فقط كان يمكن اختصارها أو اختزالها على نحو ما، لتتمكن الجدة والحفيد من التعانق وشفاء غلة الشوق المتبادل! ولكن على المرء أن يحتمل متاعب الحياة وأن يتجلد على صروف الأيام. ولعل ما صارت اليـــه جدتى المسكينة المحرومة هو الخير، ولو أنها عاشت الى اليوم ولم تمت، لما أتيحت لنا فرصة للخروج الى الحيـاة. وفى هـــذا بعض العزاء لنا.

ورأيتنى أتلفت ـ بقلبى فقط ـ وأنا داخل مكة كأنما ابحث عن بنى مازن أهلى وعشيرتى، واشتقت أن اعانق القبيلة كلها بكل مافيها حتى الخيام والجمال والخيل والسيوف والرماح، وأن أضمها الى صدرى وأن اريح رأسى على صدرها وأن أذرف دموع الفرح بلقائها بعد طول النوى وبعد الشقة، وعجبت كيف لم يخرج منها لاستقبالى والترحيب بى، وساورتنى المخاوف عليها، وأشفقت ان يكون ابن السعود قد رماها « بتصبيحة »! فان قومى ـ عفا الله عنهم ـ من ذوى المروءات، ولست أعرفهم أطاقوا قط أن يدعوا مسافراً مثقلا بالأحمال رازحاً تحت الأعبـــاء، وابن السعود يكره هذا التخفيف عن النـــاس، ويؤثر أن يدعهم ينوؤون بما عليهم وما معهم، ولا يجيز هذا الضرب من التعاون.

وأقسمت ـ فى سرى ـ اذا كان (الاخوان)«١» قد (صبحوا) قومى ، ليكونن لى معهم شأن آخر .

ولما صارت بيننا وبين مكة خطوات قال واحد :

« ألا تفتحون النوافذ ؟ »

قلت : « ولماذا ؟ » .

قال : قد يكون هناك جند لتحيتكم فيحسن أن تبرزوا لرد التحية » .

فقلت وأنا أرتد الى الوراء وقد أحسست أن وجهى صار كالجمرة وان كانت المرآة التى أمام السائق لم ترنى شيئاً ، لأنها بعيدة عنى ومنحرفة أيضاً :

« عفواً ياسيدى . لاتخجلوا تواضعنا. أرجو . ألح . . . اصرفوا الناس عنا . . » .

وكنت أريد أن اقول كلاما آخر ولكنى نسيته لأن صيحة مزعجة انطلقت وسكت آذاننا على أثرها قعقعة سلاح ؛ فخفت وسمعت أسنانى تخبط وهى تصطدم . ثم ملكت نفسى وأسعفنى الظلام فابتسمت لما علمت أن هذه تحية يتلقانا بها الجيش على باب مكة .

---

(١) الاخوان لفظ يطلق على النجديين

وانطلق البوق يرد الناس عن الطريق ، ومضى السائق اللعين يخطف بسيارته كأنه يفر بها من الموت ، ولا يمهلنا حتى نتأمل الناس المحتشدين على الجانبين والدكاكين المضاءة ، بمصابيح البترول ـ أو الزيت فما أدرى ـ والطريق طويل يشق مكة من بابها الى آخر الكعبة ومن ورائها الى السوق ، وقد قطعناه بالسيارة فى سبع دقائق ، ثم وقفت بنا أمام دار الضيافة على « المسعى بين الصفا والمروة » وأمام باب السلام ، فنزلنا وأقبل علينا ناس كثيرون يسلمون علينا ، فقلت هذه فرصة ، ولعل بعض قومى بينهم أتوا مستخفين فملت عليهم ، او عــــلى الأصح ، شببت اليهم وتعلقت بأعناقهم وطوقتهم بذراعى وساقى أيضا ـ ذراعاى حول أعناقهم وساقاى حول خصورهم ـ وأهويت عليهم أقبلهم وألثم أفواههم وخدودهم وأنوفهم وآذانهم ورؤوسهم ، وكان كل منهم يتلقى مظاهر شوقى بما تستحقه وتستوجبه من السرور والجلد ثم يحطنى على السلم .

وملنا الى غرفة رحيبة نصفها ميضأة ، والنصف الآخر تصعد اليه بدرجتين وهو مفروش ومعد للجلوس وفى وسطه مكتب عليه تليفون ، فهممنا بالجلوس فقيل بل توضأوا لتطوفوا وتسعوا وتتحللوا من الاحرام ، فان سمو الأمــــير ينتظركم . فتلفت حولى ثم الى الدرجتين ورحت أفكر فى طريقة محترمة لهبوطهما فلم يفتح الله .

على بحيلة ، وكان اخوانى فى خلال ذلك قد سبقونى الى الوضوء فدنوت من حرف الدرجة ورأيت عبداً طويلا فأشرت اليه فدنا منى ، فانحنيت من مرقبى العالى كأنى أريد أن أهمس فى أذنه شيئا ثم غافلته وتعلقت به ودرت وتركت نفسى أنحدر على هذا العمود الآدمى الى الأرض بسلام .

وقدم لى أحد العبيد « قبقابا » فنظرت اليه ثم هززت رأسى وسألته :

« ماهذا ؟ »

قال : « قبقاب للوضوء »

قلت : « ولكن كيف ألبسه ؟ »

قال . « اخلع نعليك وأدخل هذا بين اصبعيك »

و « هذا » عبارة عن اسطوانة دقيقة من الخشب المنجور عمودية على سطح القبقاب ، يدخلها المرء بين اصبعيه ثم يذهب يزحف أو يجر القبقاب ، على الأرض ولا يرفعه عنها لئلا تفلت الاسطوانة من بين الاصبعين ، اذ لاسير من الجلد له يمسك ظهر الرجل ، فقلت بل الحفى خير من هذا وقعدت أتوضأ .

وللحرم عدة أبواب ، ينحدر منها المرء الى صحن رحيب جداً يدور بالكعبة ، كصحن الأزهر إلا أنه أوسع كثيراً ، وارضه رمل حصى ، ولكنه حول الكعبة مبلط ، وكذلك مابين الأبواب

وهذا المطاف . وقد تسلمنا شيخ المطوفين ومضى بنا الى مقـــام ابراهيم ـ جدى أيضا ـ عليه السلام ووقف بنا وصفنا بين المقام وزمزم وقال صلوا ركعتين ففعلنا ثم نهضنا وبدأ الطواف ، وشرع فى العمل ، وكنت أتمنى لو تريث قليلا ـ دقائق فقط ـ لأنظر الى الكعبة فى الليل على ضوء الكهرباء ، ولكنه لم يعبأ بذلك وطوى ذراعيه الى صدره كأنه يتهيأ للجرى ، وتلك هى الهرولة ، ومضى يدعو ونحن نقول وراءه ، وكنت وأنا اهرول موزع النفس، عينى الى الكعبة والى الطائفين مثلنا وهم جماعات جماعات وكل جماعة تهرول وراء مطوفها وأذنى الى هذا الشيخ المطوف الذى كان يأبى الا ان ينطق عبارات الدعاء بأقصى ما يستطيع من البطء والوضوح وبأكثر ما يسعه من اللحن أيضاً ، كأنما حسبنا بعض الجاويين أو الهنود ولم يدر ـ سامحه الله ـ أنا . . ولكن المفاخرة لاتليق . غير أن لحنه كان يمزق أذنى ويفسد على تبتلى فى الطواف ، وقد أذكرنى جماعة « التراجمة » فى مصر الذين يحشون رءوس السائحين وزائرى الآثار المصرية بالأغاليط التاريخية والسخافات الفاضحة ، وكما عالجت مصر مشكل التراجمة والأدلاء بانشاء مدرسة لهم ، كذلك أنشأت لهم الحكومة السعودية معهداً لتخريج المطوفين ، وحسناً فعلت ، فان من رأينا من المطوفين أعاجم .

ووددت لو أتيح لى أن أتمهل عند الحجر الأسود فانه عجيب ، ولكن الزحام كان شديداً : ولسنا بأحق من سوانا بذلك ، وهو أسود فاحم ووضاء مشرق ، وحوله إطار يضاوى من الفضة والمرء يحتاج حين يقبله أن يدخل وجهه فيه لأنه ـ أى الحجر ـ مجوف . وأحسب أن ألسنة مئات الملايين من الخلق قد لحسته وأكلته ، أو ، لا أدرى ، لعله كان هكذا أبداً ، وقد قلت وأنا أفعل مافعلت الملايين قبلى وما ستفعل الملايين بعدى ، كما قال عمر ابن الخطاب : « اللهم انى أعلم أن هذا حجر لا يضر ولا ينفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله مافعلت »

والركن اليمانى حجر آخر فى زاوية كزاوية الحجر الأسود ، ولكنه أشبه بحجر الصوان أو الجرانيت سوى أنه الى الخضرة أميل ، ومن عجيب أمره أنه يبدو للطائف على بعد متر أو اثنين كأنه من المعدن أو الفضة . وقد نازعتنى نفسى مراراً أن أترك الصف وأتخلى عن المطوف وأدنو منه لأتأمله ، فلما أذن لنا المطوف أن نفعل فى الطواف السابع كنت أسبق الاخوان اليه .

والحق أقول انى أحس أن طوافى هذا لم يحسب لى فى عداد الحسنات التى يسجلها أحد الملكين ، فقد أفسده المطوف بلحنه كما أسلفت القول فى ذلك ، وكنت أنا من ناحية أخرى أرد عينى بجهد واضح عن التطلع والنظر فيما حولى ، وهكذا خرج كل من

اخوانى بقصر أو قصور فى الجنة وخرجت أنا كما دخلت وليس لى سوى مشملين على بدنى احتفظت بهما للذكرى ، فلا بد إذن من عمرة أخرى أو حجة أعوض بها مافاتنى .

وقد اشتهيت وأنا ألمس الحجر الأسود أن اقتطع منه قطعة أحملها معى وأعود بها ، فقد خيل الى انه عنبر متجمد لا حجر ، وجمحت بى هذه الشهوة حتى لأنستنى أن ليس على بدنى سوى مشامل الاحرام فذهبت أتحسس لعل معى مبراة أو شيئاً يصلح للقطع ، ثم أفقت والتفت واذا بأحد اصحابى يمد يده بمنديل يمسح به الحجر ، فعجبت من أين جاء بالمنديل وكيف حمله واين خبأه ، وقد كانت يداه فارغتين ، وتاملته واذا بالخبيث يلبس تحت المشامل ثيابه الصوفية .

وقد قلت له لما عدنا الى دار الضيافة :

« هات جنيهاً ياسيدى : جنيها ذهبا . »

فحملق فى وجهى وقال : « لماذا ؟ »

قلت : « جنيها نشترى به ذا القرنين »

قال : « ذا القرنين ؟ لست أفهم »

قلت : « خروفا ذا قرنين طويلين متلويين نطلقه عليك فينطحك بهما ثم نذبحه ونطعم الفقراء لحمه » .

قال : « ولكن لماذا ؟ »

قلت : « جزاء وفاقا بما زورت على الله ياخبيث ! أتلبس ثياب الصوف تحت المشامل مغالطاً ربك فى قلب الحرم المقدس ثم تتجاهل وتحاول ان تهرب من الفدية ؟ ! هات لنا ذا القرنين عجل ! »

ولكنه لم يزد على أن قال: أوه ! « وضحك »

وملنا الى زمزم وهى بئر فى الحرم عليها بناء له باب ، فسقونا منها ماء غير سائغ ، وذخلنا البناء لنغسل رءوسنا ولا أدرى لماذا ، واقترح بعضهم علينا أن نستحم بمائها فلم نر لهذا موجبا ، فان ماءها بارد وجو مكة فى الليل غير دافئ ، وعلى فم البئر سور من الحديد عال أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحلو لهم أن يلقوا بأنفسهم فى البئر ليغرقوا و يموتوا شهداء على ظنهم ويذهبوا من قاعها الى الجنة مباشرة بأخصر طريق .

وخرجنا للسعى ، بين الصفا والمروة ، وهو طريق بينهما مهدته الحكومة السعودية وعبدته ورصفته تسهيلا للسعى ، وطوله نحو كيلو أو أقل ، ولا بد من قطعه سبع مرات ، فلما شرعنا نسعى جاءنا البشير من قبل الأمير أن فى وسعكم أن تسعوا بالسيارة اذا كان التعب قد أدرككم فرفعت يدى بالدعاء لسموه وابتهلت الى الله أن يطيل عمره وأن يلهمه دائما — على الأقل ونحن فى الحجاز — مثل هذا التيسير على الناس وعدوت الى السيارة فضاح بى الدليل الذى يسعى بنا أو معنا على الأصح :

« الى أين ؟ »

قلت . « الى السيارة . ياصابر . تعال بسرعة »

ولكن صابراً سائقنا كان ملكيا أكثر من الملك ، فقد أبى لنا أن نسعى بالسيارة وقال ان هذا لا يجوز ، وان المسعى غاص بالساعين وبالنساء والرجال والاطفال ، فليس ما تبغون من الانسانية فى شيء . فخجلنا وتركنا السيارة بعد أن استوينا فيها . وأصارح القارىء بانى لعنت « صابراً » هذا فى سري ، وان كنت لم يسعنى الا احترامه ، وهو شاب فى العشرين من عمره حدثنا فى الطريق أنه مصرى الأصل وان لأسرته نحو مائة عام فى الحجاز ، وقد كان على أيام الحسين أحد رجال فرقة الموسيقى الحربية ،ولكنه الآن سائق سيارة فى شركة القناعة ، وأبرز صفات هذا الشاب الجرأة والاستقلال مع الأدب الوافر ، وحديثه ممتع وفى لغته فصاحة وفى صوته عذوبة وفى عينيه حلاوة ، ولو كان الغناء مباحا لكان الأرجح أن نسمع منه شدواً مطربا ، وقد كان يخاطب كبراء الحجاز فى جدة ومكة وفى الطريق بينهما مخاطبة الند للند ويشعل أمامهم سيجارته ويذهب يدخن ويناقشهم ويحاجهم ويعترض على بعض ما يقولون ويدلى بالصواب فى رأيه كأنه ند لهم ،وكانوا هم يتقبلون منه ذلك ولا يرون فيه شذوذا ، ولا يبدو عليهم أثر لدهشة أو الامتعاض ، فالأمر اذاً مألوف.

ولكنه حنبلي مستبد ، أبى لنا ان نسعى بالسيارة ، فلما أصر رسل الأمير وألحوا ، ترك السيارة وأبى أن يسوقها فتولاها غيره ، وأحسب صابرا قد حقدها علينا وأسرها لنا فقد تخلى عنا بعد أن عدنا الى جدة ، وعلى أن هناك حاقدا غيره ، هو زكى باشا . سعى على قدميه مع بقية اخواننا وسعينا نحن بالسيارة فجعل بعدها يشنع علينا و يشهر بنا ـ مازحا ـ فى كل خطبة له ، بل جعل يتخذ من ذلك دليلا على ان الاسلام لا ينافى التقدم ومظاهر المدنية الحديثة ، وما كان هذا الدليل ينقصه ولكنها الرغبة فى التشهير بضعفنا واعيائنا والمباهاة بقوته وجلده على الرغم من سنه .

و قصصنا شعرات من رءوسنا ولبسنا ثيابنا ، أما أنا فاخطأت و قصصت الشعرات بعد ارتداء الثياب و لم اتنبه الى خطئ الا بعد أن صرت فى نصف ثيابى ، فكتمت الأمر ، و فى مرجوى ألا يفطن اليه الملك الموكل بى و لا أدرى أيهما ولكن هذا الاختلاف على الاختصاص شأن يعنى الملكين وحدهما و لا دخل لى فيه و لست مكلفا أن أفضه ـ غير أن أحد زملائى أبى الا أن يلاحظ ذلك و يرفع به عقيرته و يصبح مسجلا على هذه المخالفة ، فأحسست بالملكين جميعاً يتحركان و ينتزعان الريش من جناحيهما لتدوين هذه الملاحظة ، فكظمت غيظى وقلت و انا أتكلف الابتسام :

« ياسيدى ان العمرة فسدت كلها من قبل ذلك ، وقد اعتزمت ان أعوض ما فاتنى فى وقت آخر »

ثم التفت الى يسارى و قلت بصوت عال لـكاتب السيئات :

« وعلى أن الذنب فى خطئى راجع لغيرى: الى المطوف أولا ثم اليكم ، فقد كان واجبا على العارف يعلم الجاهل » .

واسترحت بعد أن أدليت بحجتى وشرحت عذرى وحركت كتفى اليمنى تنبيها لمسجل الحسنات

***

وقصر الملك فى طرف من المدينة ، وهو طويل عريض ، مبنى بالآجر ، وله جناح جديد هو الذى دخلناه ، و فى فنائه حديقة صغيرة وقد استقبلنا الجيش على الباب وحيانا لاأدرى كيف فلست اخصائيا فى حركاته . وصعدنا الى حجرة عظيمة طولها ـ على ماأقدرـ لاأقل من خمسة عشر مترا فى نحو عشرة أمتار ، مفروشة ببساط من المخمل ، و على مدارها مقاعد عالية شبيهة « بالـكنب » المصرى ، ومكسوة « باليوت » والمخمل ، وكذلك « براقع » الستائر وفى وسطها صف من العمد يحمل سقفها ، والجدران مكلسة ، وكان الأمير جالساً فى الصدر فنهض لاستقبالنا ، فسلمنا و جلسنا وجاءت القهوة ، و من بعدها الشاهى أو الشاى .

والأمير فى الرابعة والعشرين من عمره ، و هو نائب الملك

فى الحجاز كما ان أخاه الأكبر الأمير سعود ـ ولى العهد ـ نائب الملك فى نجد ، وثيابه ثوب أبيض «كالجلابية» المصرية فوقها سترة «جاكتة» رمادية عليها العباءة السوداء وهى رقيقة النسج شفافة، وعلى رأسه «الحرام» والعقال . وهو قسيم وسيم حلو النظرة عذب الابتسامة وديع ، ولكن نظرته حين يصمت تبدو حزينة ، وفى تقوس شفتيه وذقنه مرارة لا تخلو من تصميم ، أما القوة فآيتها أنفه الأقنى وجبينه العريض . وأغرب ما فى وجهه اجتماع اللين والصلابة والرقة والقوة ، واختلاط ذلك كله وتسرب بعضه فى بعض ، وهو أنطق وجه رأيته بجميع هذه المعانى ، غير أن المرء لا يسعه الا أن يشعر أن هناك زاوية وراء هذا المحيا الناطق يغيب فيها الأمير خواطره وأراءه الخاصة ويحجبها عن العيون الفاحصة. وقد كنت أتوقع ـ قياساً على ماشهدت فى جدة ـ أن يكون قصر الملك أفخم رياشا وأفخر أثاثا ، فاذا به يمتاز بالنظافة التامة والبساطة الكاملة أما الأبهة فقد تركها لمن شاء من شعبه .

وغرفة الطعام كأبسط ماتكون : حجرة مستطيلة تسع نحو مائة . فى وسطها مائدة طويلة ساذجة صفت اليها الكراسى الخيزران ، وأدوات الأكل تامة ، والآنية كلها من طراز واحد، والملاعق والسكاكين وما اليها من الفضة ، وقد تناولنا الطعام على الطريقة العربية وقضينا فيه أكثر من ساعة نتفكه عليه بالحديث،

ولم يكن ثم نظام معين أو ترتيب معد للجلوس بل قعد من شاء حيث شاء ، وقد احتفظت بقائمة الألوان ، وهى مطبوعة على الآلة الكاتبة وفى نشرها دفع لكثير من الأوهام الصبيانية :

« شوربة بالبزاليه
دجاج رستو بالبوريه
بامية
حلا كريمة بالكاكاو
بريك
دجاج بالكرى
بدنجان اسود بالزيت
حلا كيك بالمشمش
رز بالشعرية
فاكهة »

وقد علمنا من سموه ان الخضر تزرع فى وادى فاطمة — وسيجىء ذكره — من مثل البامية والملوخية والباذنجان و الخرشوف وما الى ذلك ، وفى الوادى فواكه كالموز والليمون الحلو فضلا عن الملح ، وقد كان سموه يذكر ذلك بلهجة المباهاة ، ولفتنا بصفة خاصة الى الباذنجان ، ولكنى لم استمرئه لأنه غليظ سميك الجلد غير سائغ الطعم .

ولا أطيل على القارئ . ذهبنا بعد الطعام الى حجرة أخرى للجلوس ، مؤثثة على طراز حجرة الاستقبال الكبرى ، ولكني استغربت أن أرى فيها دولابا مما يتخذ للثياب . وأديرت علينا القهوة وأكواب الشاى ، واشتهينا أن ندخن ، ولكن التأدب منعنا ، والناس لا يدخنون فى حضرة الأمير أو كبار النجديين لأن الدخان مكروه عندهم ، وكان الليل قد انتصف فاستأذنا فى الانصراف ، ولو أنا كنا انتظرنا حتى يصرفنا هو لبثنا الى الصباح ، فما مما يليق عندهم أن يصرف الرجل ضيفه ، ولم نكد ننطلق بالسيارة حتى أشعلنا السجاير .

ومن غريب عاداتهم أن الضيف لا ينام على فراش اتخذه واحد قبله ، فاذا ذهب ضيف فكت المراتب والوسائد والأغطية وأعيد تنجيدها لمن عسى أن ينزل من الضيوف ، وقد لفتنا الى هذا أنا رأينا كل ما على الأسرة جديدا لا شك فى ذلك ، فسألنا فعلمنا ما رويت ، وقيل لنا سترون المنجد غدا يدخل وأنتم خارجون . وأقسم ما نمت على فراش أوثر من هذا ولا أمتع ، ولقد راهنت واحداً على أنه محشو بالريش فخسرت الرهان وتبين أنه قطن جيد مندوف لا أكثر .

ولما فتحت الحقيبة لأخرج ثياب النوم وجدت أنى نسيتها فى جدة ، فقلت : لا بأس قليل من التقشف ينفع المترف ، وبحسبي

بعض ماعلى من الثياب .

و أخذنى النوم وأنا أفكر فى الأمير وفى انتظاره إيانا فى قصر جلالة الملك ثلاث ساعات من غير أن يمل أو يتأفف ، بل من غير أن نشعر نحن بالحاجة الى الاعتذار له .

لاأدرى ماذا أصابنى فى مكة ، فقد كنت أحس أن عفريتاً من الجن ركبنى ، وبلغ من شدة الحاح هذا الشعور انى كنت أرانى أقف فى الطريق وأثبت قدمى فى الأرض مباعدا بينهما وأرفع إحدى ذراعى الى ما وراء كتفى كمن يريد أن يسند شيئا ثم أرفع كتفى وأحطهما كأنى أريد أن أرد مافوقهما الى الاتزان والاعتدال كما يفعل من يحمل طفلا أوغير ذلك ، فذكرت قصة السندباد البحرى الذى ركبه ما ركبنى ، فلم يزل مستقراً على كتفيه حتى سقاه السندباد البحرى خمراً أدارت رأسه وراخت أعصابه وفككت أوصاله فطرحه عنه . ولقد تمنيت لو أتيح لى أن أسقى عفريتى كأساً من الوسكى أو حتى من الزيت لأتخلص من ثقل هذا الكابوس ، ولكنا كنا فى مكة ولا سبيل فيها الى شراب غير ماء زمزم ، وهو ماء قد يغنى النفس ولكنه لا يسكر

على أنى لم أقطع الأمل ، وكيف أقطعه وهذا العفريت على كتفى قد لصق بهما وصار كأنه امتداد لهما ؟ وكيف أطرح حمله الثقيل عن عاتقى بغير الوسكى أضحك به عليه وأزلزل كتفى تحته ؟

فتفحصت الوجوه التى حولى وتفرست فيها ملياً ثم أخترت وجها كالمنتفخ فيه عينان باطن أجفانهما المحمر كأنه مقلوب ، وقلت له :

« ياصاحبي أنى أشيم الخير من وجنتيك، وآنس الرشد من عينيك . . »

فقاطعنى « عفواً سيدى . . »

قلت « لا داعى لهذا التواضع فان الأمر بين ولا يشك فى ذلك الا أعمى ؛ فهل لك فى معاونتى ؟ »

ففرك كفيه جذلا وتهدلت شفتاه الغليظتان وانشقتا عن أسنان طويلة سوداء ، وقال وهو يحنى رأسه قليلا :

« مرنى ياسيدى نحن هنا خدامكم »

فوضعت كفى على كتفه وقلت :

« أستغفر الله . إن الأمر بسيط على ما أظن لا يحتاج إلا إلى خادم واحد يعرف كيف يصرف العفاريت عن الناس »

فحملق فى وجهى كأنه لا يفهم فمضيت فى كلامى وقلت :

« ان لنا فى مصر طريقة مجربة نصرف بها العفاريت إذا ركبت الناس ، وقد أخذناها عن السندباد البحرى ، أظنك تعرفه ؟ لا بد أنك سمعت به . إنه ذلك التاجر البغدادى الشهير .. آه لا تعرفه ؟ عجيب هذا ! اذاً ما طريقتكم أنتم ؟ »

فتلعثم وقال : « طريقتنا ؟ طريقتنا ؟ هل يريد السيد المازنى

أن يقول إنه يعتقد أن العفاريت تركب الناس؟ »

قلت بضجر: « طبعا. طبعا إن العفاريت مذكورة فى القرآن. أفلا تؤمن بالقرآن؟ على ان المسألة لا تحتمل الخلاف فان الواقع من الأمر أن على كتفى الآن عفريتاً وانا أريد أن أصرفه فما أستطيع ان أظل احتمله فى غدوى و رواحى هكذا! ثم انى أريد أن أدخل الكعبة غداً فكيف أدخلها بعفريت؟ ألم تفهم؟ ان العفريت يود أن يغتنم هذه الفرصة - فرصة وجودنا و كوننا ضيوف الأمير والسماح لنا بدخول الكعبة بغير تفتيش: فيدخل معى، أعنى منستخفياً على كتفى. وهذا لا يجوز، ولست أرى أن اساعده على ذلك. أفهمت الآن؟ »

فضحك الخنزير - أعنى الرجل الذى توسمت منه الخير، وظننى أمزح، وقال:

« يارجل. والله لقد حسبتك جادا؟ »

فغاظنى ذلك ولكنى كظمت غيظى وقلت بابتسامة متكلفة:

« لقد أخطأت. إسمع. قد يكون عفريتى مؤمناً أولا يكون، لا أدرى. لذلك أريد أن أصرفه. فهل لك أن تعيننى؟ أجب بلا أو نعم. وعسى أن لا تخيب أملى فيك »

فعاد اللعين يضحك، وأحسبه أحب أن يجارينى فيما ظنه مزاحاً منى فقال:

« وما هى طريقة السندكار البحرى التى تتبعونها فى مصر ؟ ».
فتشجعت وقلت بلهجة الجد المر .

« نسقيه كأسا أو اثنتين فيسكر فنلقيه ونستريح منه ـ طريقة عملية ـ بل هى أضمن طريقة لأن قوة الاسكار فى الخمر حقيقة علمية ولهذا نهى الشرع عنها »

فأرسلها ضحكة مجلجلة تجاوبت باصدائها الحجرة فأسرعت فوضعت يدى على فمه وبودى لو أكتم أنفاسه فقال بعد أن تخلص منى :

« والله يا أهل مصر إنكم لظرفاء »

فقلت « العفو . هذا بعض ما عندكم . على أن فى الوقت متسعا لتقارض الثناء فهات لعفريتى كأسا » .

فابتسم وقال .

« كيف تسقيه وأنت لا تراه ؟ » .

فقلت « إنى أعرف الطريق الى فمه فان بيننا الآن اتصالا لا تدركه أنت . فهاتها أولا والباقى على . »

ولكنه لم يفعل ، لأنه ظن لبلاهته أنى أستدرجه الى الاعتراف بان فى مكة خمرا ، وقد رأيته بعد ذلك فعجبت أين غابت سمات الخير وكيف استسرت مخايل الرشد التى كنت اجتليها فى وجهه ؟

وقد ساط زكى باشا نفسه علينا بعد ذلك فى الفجر أو قبيله بدقائق وكنا نياما ، كما لا أحتاج أن أقول ، وكان عفريتى قد انصرف عنى فى الهزيع الأخير من الليل — انصرف على يأس كبير ، وكان فى حجرتنا ستة أسرة على صفين ، والباقون منا فى حجرات أخرى . وكان سريرى بجانب النافذة بحيث يسعنى بأيسر مجهود ان أطل من الشباك على الحرم ، واتفق انى كنت أحلم بالعفاريت وأرانى كأنى أسقيها خمراً وأعابثها وهى تترنح فأدغدغ لها خصورها تارة ، وأشعل السجاير من عيونها طورا ، وأجرها من ذيولها وأديرها حولى ، وهكذا واذا بصوت ممدود مزعج يوقظنى من سباتى و يبدد أحلامى اللذيذة ويطير خيالاتى الممتعة ، ففتحت عينى متضجرا ، فاذا شبح ضخم يبدو من وراء الكلة فقلت لنفسى « يا للفضيحة ! أيسطى علينا فى دار الضيافة ؟ » وابتسمت مطمئنا فقد تركنا ما معنا من النقود فى جدة ، وتناومت لأرى آخر هذه الحكاية ، فانبعث من الشبح صوت غليظ مديد فرفعت رأسى مقدار قيراط فاذا به زكى باشا يبدو فى عباءته شيئاً عظيما جدا ، ولم يعجبنى أن يوقظنى فى فحمة الليل فحولت وجهى عنه فمد يده وصاح :

« قم ! »

فاشرت اليه ان لا ، فعاد يصيح

« أقول لك قم ؟ »

فصحت بأعلى صوت أستطيعه :

« وانا اقول لك لا فاذهب عنى »

فقال : « قم لنصلى الفجر فى الحرم . منظر لذيذ لا يصح ان يفوتك »

فقلت « اذا كان المنظر هو كل ما تبغى ، فاذهبوا انتم فان منظركم من النافذة سيكون امتع لى ، ويمكنكم ان تضعوا علامة على ظهوركم لأعرفكم بها »

وأحسبه لم يسمع أولم يحفل ما أقول فقد مد يده من تحت الكلة وراح يشد اللحاف و يعرينى وهو يقول

« قم . قم . قم . »

فصحت به وأنا أجذب اللحاف لأتغطى .

« لأ . لأ . لأ . »

فمضى عنى الى الباقين واحداً واحداً ونسى انه أيقظهم جميعاً حين أيقظنى

٭٭٭

وتوضأنا ودخلنا الحرم ، وفتحت لنا الكعبة وبابها عال والصعود اليه بسلم خشبى متحرك ، يوضع عندالحاجة و يرفع بعد ذلك ، وهو من النوع الذى كان يتخذ فى المساجد المصرية ليرقاه

الخادم ليبلغ الأسرجة فيضيئها أو ينظفها ، وذلك قبل اتخاذ الكهرباء ،
وتناول يدى سادن الكعبة وأنا على آخر درجة فكدت أقع
وأهوى ذلك أنى كنت أصعد على يدى و رجلى كما تفعل القردة ،
ولما استويت واقفاً طوقنى بذراعيه وغمر وجهى بلحيته البيضاء
الطويلة وكنت أنا أيضا قد أرخيت لحيتى ، وكانت بيضاء كذلك ،
ولكنها قصيرة فأسفت لأنى لم أرسلها قبل رحلة الحجاز ببضعة
شهور ، اذاً لاستطعت أن أقابل سادن الكعبة مقابلة الند للند ،
وان أشكه بلحيتى كما شكنى بلحيته، على أن لحيتى على قصرها أفادتنى فى
الحجاز و بوأتنى مقاما ملحوظا ومركزاً ممتازاً ، وأكسبتنى وقاراً ليس لى؛
وجعلت لى سمتا وأبهة لا عهد لى بهما . وكان الناس يحتفون بى
ويهرعون الى و يكبروننى من أجلها ، وينحنون على يدى فاجذبها
وأقول : « استغفر الله . تؤ . تؤ . تؤ بارك الله فيكم » و يعنون بى
و يمنعوننى ان أمشى الى حيث السيارة لأن من كان فى مثل سنى ،
وكانت له مثل لحيتى البيضاء لا يليق أن يجشم مشقة ، أو يكلف
تعباً . فلو أن الغيد فى الحجاز سافرات لبكيت ولقلت متوجعا كما
قال ابن الرومى :

أصبحت شيخــــاً له سمت وأبهة

يدعونى الغيد عماً ، تارة ، وأبا ،

ولكنهن هناك محجبات ، فلا أسف ولا بكاء .. وإنى لحقيق

نحمد الله وشكره على أن بيض وجهى ولم يسوده كوجوه زملائى ـ أعنى الذين كانت لحاهم سوداء ، وقد أسفت وأنا هناك على عمرى الذى أضعته فى الاشتغال بالأدب . وأنفقته فى هذا العبث الذى لا يجدى . فان لحية واحدة بيضاء ترجح هناك بمائة كتاب من خير ما أنتجت العقول . ولو كنت أعرف هذا من قبل لجعلت وكدى لا الكتابة والتأليف كلا ، فان هذا كله عبث بل معالجة لحيتى لتشيب .

ومشى بى النسادن خطوات ثم وقف بى ورفع يديه ، راح يدعو وأنا وراءه ، وعينى الى لحيته النشيطة التى كانت تتحرك مع الكلام ، وأقسم لقد نفستها عليه حتى لقد خطر لى أن أنزعها عن وجهه وألبسها بدلا منه .

وقال بعد أن فرغ :

« صل هنا ركعتين »

قلت : « أين القبلة ؟ »

قال : « لا قبلة هنا . كل مكان قبلة »

قلت « فهل أصلى دائراً حول نفسى كالكرة الأرضية ؟ إن هذا صعب ، فأرنى كيف أصنع »

فلم يفهم وقال :

« تصلى ركعتين فى كل اتجاه »

فانجه لى رأيان أردت أن أستفتى فيهما .

ولكنى لم أجد من يفتى ، أو على الأصح لم أتوسم فى وجوه من حولى قدرة على الافتاء ، فأطعت وصليت .

والكعبة من الداخل حجرة واسعة خالية يحمل سقفها عمد غليظة من خشب زكى الرائحة ، وهى مكسوة ، ولكن الجزء الأسفل من جدرانها معرى ، وعليه ألواح من الرخام حفرت فيها كتابات بخطوط شتى ترجع الى عصور مختلفة تذكر أسماء من أصلحوها أو رمموها أو زادوا عليها شيئا أو فعلوا غير ذلك ، وبعض الكتابة كالطلاسم لا يقرأ . وقد تعقبنى رجل يشرح ما على الجدران، وكان من الجلى أن شرحه خطأ وأن الاختراع فيه أكثر من العلم ، فسألته وأشرت الى لوح ردىء الخط « ماهذا ؟ »

فقال : « هذا ياسيدى . . هذا . . . أظنه خط . . أ . . أ »

فقلت : استعجله « خط من ؟ »

فدنا من اللوح وتأمله من قريب ثم رفع رأسه وقال :

« نعم . المنتصر بالله المستنصر . . إيه ؟ نعم هو بعينه لقد عرفته . »

فقلت : « آه عرفت خطه ؟ »

قال : « نعم »

قلت : « أنه ردىء »

قال « نعم غير واضح »

قلت « هل كان صديقك ؟ »

قال « صديقى ؟ »

قلت « لعله كان قريبك ؟ »

فحملق فى وجهى ثم قال « انه قديم جداً »

فسألته : « الخط أم الرجل »

فقال « كلاهما »

فقلت « شىء جميل ! وأين هو الآن ؟ »

فقال بلهجة المستغرب أو الذى بدأ يشك فى عقل محدثه :

« أين هو الآن ؟ لقد مات منذ مئات من السنين »

فسألته : « وهل كتب هذا بعد أن مات ؟ »

فجذبنى أحد الزملاء فلم ألتفت اليه وقلت لدليلى :

« أريد أن أبكى »

وأخرجت المنديل ورفعته الى عينى فأقبل على الرجل يسألنى بلهفة :

« ما السبب ياسيدى ؟ لماذا البكاء ؟ »

فأجهشت وقلت بصوت متهدج من فرط التأثر .

« أسفا على المستنصر ! »

فجعل يطيب خاطرى و يؤكد لى انه فى وديعة الله وجنته .

فقلت والدموع تنهمر من عيني .

« ولكنه مسكين . فقد عمره كله »

فأخذ يشكر لى عواطفى الرقيقة وشعورى الطيب فتسايلت عبراتى على خدى وأنا أقول .

« لو كان قد أدركك لما خسر عمره كله هكذا . مسكين ! »

وانتحبت . فشدنى زميلى وقال .

« تعال ياشيخ ! »

* * *

ولما عدت الى مصر . أقبلت أمى على تسألنى فقصصت عليها ما رأيت ، ووصلت فى وصفى الى الكعبة فقالت . .

« هل دخلتها ؟ »

فقلت . « بلى . دخلناها بصفة خاصة »

فقالت . « طوبى لك ؟ لا تخبر احداً بما رأيت فيها . احذر » .

فسألتها عن السبب فقالت .

« إن من يرى الكعبة من الداخل لا يقص على غيره ما يرى »

قلت : « ولكنها خالية ولا شئ فيها . كانت أشبه بمخزن للأوثان فى الجاهلية فأخلاها منها النبى عليه الصلاة والسلام »

فقالت : « أيوه . خليك على كده . كل من سألك عنها تقول له لم أر شيئاً »

فقلت : « ولكنها حقيقة خالية »

قالت تمام . مضبوط . بارك الله فيك »

فقلت : « انى لا أكذب ولا أدعى : هى حقيقة كما أقول خالية »

فقالت « أيوه . تمام . أهو كده . الله يزيدك عقلا . »

فأمسكت ، ولم أرلى حيلة ، و هأنذا أقول للقراء إن الكعبة لاشيء فيها فليصدقوا أو لا يصدقوا ، وليكونوا كأمى ، وليدعوا لى أو فليضنوا على بالدعاء ـ كما يشاءون

* * *

وقد كانت مصر ترسل الى الكعبة فى كل عام كسوة جميلة دقيقة الصنع ، فكفت عن ذلك فخسرت مركزها الدينى الممتاز وثناء العالم الاسلامى عليها وحمده لها و إعجابه بصناعتها ، و تبطل من جراء ذلك صناع الكسوة المصريون الذين ورثوا هذا الفن عن آبائهم وانقطعوا له ، وأنشأت الحكومة السعودية داراً لصنع الكسوة جلبت لها الأساتذة من الهند ليتولوا ذلك وليعلموا أبناء الحجاز . و قد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما تخرج من الحرائر الموشاة والمطرزة بالقصب والفضة ، ومن السجاجيد وما اليها ، و هكذا أفاد الحجاز صناعة جديدة وخسرت

مصر صناعتها القديمة البديعة ، وأصيب عمالها بالفاقة .

* * *

ومن الممكن أن أقول — ومن الممكن ان يصدق القارئ — ان لحيتى طالت فى خمس دقائق أضعاف ماتطول عادة فى خمسة أيام ، وانى لولا سوء الحظ لخرجت من الحرم صباح ذلك اليوم بلحية جليلة طولها على الأقل شبر . وسأروى للقارئ ماحدث وأنا على يقين من أن مروءته ستدفعه الى مشاطرتى ذلك الغم الذى انتابنى لما أفلتت من يدى تلك الفرصة الفضية

وشرح ذلك كله أننا خرجنا من الكعبة أو نزلنا على الأصح ثم قعدنا بين الصفوف عند باب الصفا ننتظر مقدم الأمير لزيارة الكعبة وسماع الدعاء — على بابها — لجلالة والده بطول العمر ودوام النصر والتأييد وبأشياء أخرى كثيرة نسيتها الآن وأذهلنى عنها ماوقع لى ، وكان الجيش صفين فى الطريق من دار الحكومة الى الحرم ، وتلاميذ المدارس صفوفا فى فنائه ، وقيل جاء الأمير فنهضوا بنا الى الباب ، وأقبل سموه وبين يديه وأمامه وعلى يمينه ويساره حاشيته وعبيده فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم المباخر ، فدفعونا اليه وفرقوا بنا الخلق الى صفه فسرنا فى موكبه ومنا من استطاع أن يكون الى جانبه ، وآخرون ردهم الزحام وراءه حتى بلغنا الكعبة

ووقفنا أمام بابها ، فأجلت عيني في هذا الحشد الهائل وأنا أتصبر على ما أحسه من الضغط الذى كاد يقصف لى ضلوعى ، فرأيت الشفاه تلعب ، فخفت أن يرى أحد شفتى ساكنتين لا تضطربان بشيء ، فقلت احركهما بالفاتحة لعل الله ينقذنى ببركتها من الأزم الذى أنا فيه . وأشهد انها كانت اشد الفوائح التى قرأتها فى حياتى بركة ، ذلك انى ما كدت اتلو منها آية حتى ارتفع صوت بدعاء ، ثم رأيت شاباً ـ أوأنا أظنه ذلك ـ يرمى الى الداعى بعباءة رقيقة النسج جميلة ، فقلت لنفسى وانا احسد الداعى ، والله انى لأحسن ان أدعو بخير من هذا وبأجدى منه على الأمير ، ثم إنى أرى دعائى مستجابا أيضاً .

ولم أستطع أن استرسل فى هذه الخواطر ، فقد قطعها على أن سادن الكعبة ـ وكان واقفاً فى حاشيته ، أو لعلهم ابناؤه واحفاده فى باب الكعبة ، فوقنا ـ تقدم خطوة وبسط كفيه وانطلق هو أيضاً يدعو ، فقلت لنفسى سيجيء دورى إذاً ، فصبراً يامازنى ، وعسى أن يكون مع الشاب الكفاية من العباءات ، وقارب الشيخ السادن ختام الدعاء فزل لسانه ـ والمرء ، كما تعلم بأصغريه .. قلبه ولسانه لا بلحيته وقوامه ـ فدعى بطول النصر والتأييد .. ولكن .. للحكومة العثمانية ! !

فصحت : « ياخبر اسود ! »

ولم أملك نفسى فقرصت ذراع جارى وانا اظنه زميـــلا لى ، وأدرت اليه وجهى متوقعاً ان أقرأ فى وجهه تأييد صيحتى فراعنى :

أولا ـ انه لم يكن زميلالى ولا رجلا اعرفه او احب أن اعرفه .

ثانياً ـ انه كان ينظر الى شزراً ووجهـــه من التقطيب كالأسفنجة .

ثالثاً ـ انه كان يعرى ذراعه و يفحصه جيداً ، استعـــداداً للاكمتى لما توهمت ، فخطوت الى الأمام وتسللت بين الأرجل حتى حاذيت الأمير ، ولا اكتم القارىء انى خفت ، فقد ايقنت ان قرصتى كانت اوجع لهذا الجار من الدعاء للحكومة العثمانية ، وانا ـ كما لايعلم القارىء وكما يمكن ان يعلم بالتجربة ـ ماهر فى القرص ، ومزيتى انى أتناول « خيطاً » من الجلد بين لحم اصبعى وافركه بهما لابأظافرى ، كما يفعل الاغرار والبلهاء ، فيكون لذلك كى ، وشى ، ولذع كلذع النار، فهذه فائدة خرج بها القراء من حيث لايحتسبون.

وايقنت وانا واقف ان سادن الكعبة سيطير رأسه عن بدنه بضربة سيف ، وما على الأمير الا ان يغمز بعينه واحداً من عبيده او يومىء له باصبع فاذا الراس يتدحرج على السلم ويهوى عنـد اقدامنا ، ولم تخالجنى ذرة من الشك فى ان هذا آخر عمر الرجل، ونسيت ان الحرم كل من فيه وما فيه آمن، وقلت لنفسى. مادام ان الرجل

مقتول لامحالة ، فمن الخسارة ولاشك ان تذهب لحيته مع روحه وهى ستحلق له على كل حال بعد موته ، فما يكون المرء فى الجنة إلا امرد ، ورفعت عينى الى وجه الأمير وقد وطنت نفسى ان اتقدم اليه ، بعد ان ألمح اشارة الاعــــدام ، راجياً ان يأذن لى فى نزع لحيته واتخاذها لنفسى . وحولت عينى الى الشيخ سادن الكعبة فاذا واحد وراء يجذبه من كتفه .

فقلت . « آه ! لقد حم اجلك يامسكين! سيقودونك الى الخارج ليقطعوا لك رأسك » .

ولكن السادن خيب أملى ، ذلك انه التفت الى من يجذبه ثم الينا وقال مصححاً :

« بطول النصر والتأييد للحكومة السعودية »

ضاعت الفرصة . خسرت اللحية . وسأخرج إذاً كما دخلت وليس على وجهى سوى هذه الشعرات القصيرة ، واأسفاه ! وسيظل هذا الرجل بشبر من الشعر الشائك على مدار وجهه على حين أمشى انا بين الناس محروماً كاسف البال ؛ وما لحية يضن على بها الأمير ؟ ؟ ان صاحبها لايزيد بهـا كبراً ، ولا ينقص بغيرها عمره ، وقد لبسها دهراً طويلا فحسبه طول ماتمتع بها ولن يضيره الآن وهو واقف على ساحل الحيـاة ،

أن تخلع على ، أنا الذى ليس احوج منى الى مثلها

وهبط قلبى ، وتدلى رأسى على صدرى ، واسودت الدنيا فى عينى ، وتهضم وجهى ، ونقص وزنى ، وتخاذلت رجلاى ، فلو افسح الناس لى مكانا كافياً لتهسافت الى الأرض وتهاويت كوماً مفككا من العظام اليابسة والأعصاب المرهقة ، وأدبر لحم خدى ، وظل يدبر ويدبر حتى بلغ أصول الشعر ومنابته فبرز معظم الشعر الى الجذور .

ورفعت يدى الى وجهى فاذا بى أحس لحيتى قد طالت . . . من الهزال !

وانطلقت المدافع من قلعة بجاد فطار الحمام عن أكتافنا

***

وكر الأمير راجعا فكررنا معه نتدافع ونتزاحم ويستوقفنا رياض أفندى أمام الفوتغرافية فنتلمس رؤوسنا فرجة تظهر منها أمام العدسة ، وأشب أنا القصير المسكين ثم انحط يائسا ، حتى بلغنا الباب ، وكنا قد دخلنا من غيره ، فسبقنا الأمير الى دار الحكومة ، ووقفنا نحن ننتظر أن يجيئونا بأحذيتنا ، فلما صارت فيها أقدامنا مضينا بين صفوف الجند الى دار الحكومة ؛ وراقنى منظر الجنود فى ثياب « الخاكى » وقلت إنهم باقون لتحيتنا ولا شك

فقد مر الأمير ، فجعلت أتلفت يمينا ويساراً وأرفع يدى بالسلام فسألنى واحد

« على من تسلم ؟ »

قلت . « أريد تحية الجند يا أخى »

فصاح بى « أى جند ياأخى ؟ ألا تخشى أن يعدوا هذا تهكما منك ؟ أتريد أن توقعنا فى ورطة ؟ »

فمنحته أعذب ابتساماتى وأرقها وأحفلها بالعطف والمرثية ، وواصلت تحياتى وتسليماتى غير عابىء بهذه الغيرة ؟

وتوقعت أن تنقض الدار ، فقد كانت غاصة لاموضع فيها لقدم فلو رميت كرة صغيرة لظلت تتنقل من رأس الى رأس دون أن تصل الى الأرض ، بل لكان الأرجح أن تصعد مع الناس الى الطبقة العليا وأن تدخل على الأمير معهم .

وبعد لأى ما بلغنا غرفة الاستقبال ، وكان الأمير واقفاً فى الصدر وحوله الكبراء والجند والناس يتقدمون اليه ويصافحونه ، فاذا كان من بينهم عظيم أو وجيه وضع ـ أى الوجيه ـ يده على كتفى الأمير وجذبه اليه وقبل أنفه لأن الأنف أبرز شىء فى الوجه ، وقد وقف الأمير كما رأيناه ، مقدما أنفه لمن شاء ومتلقيا عليها قبل المهنئين ولثمات الداعين ، فلما جاء دورنا وددت لو أنه كان أمامه كرسى ! إذاً لفزت أنا أيضا بتقبيل أنفه ولجربت ذلك

وعرفت سببه وتقصيت سره ، ولكنى كما تعرف ، فاكتفيت بأن تقدمت اليه فى تؤدة ووقار ، ويسراى تمسح لحيتى تنبيها اليها ولفتا لشيبها ، ويمناى تمتد الى يده وتقبض عليها .

والحق أقول ان سلام النجديين لا يعجبنى لأنه بارد لا حرارة فيه ولا روح ، والواحد منهم ـ أميرا كان او غير أمير ـ يمد اليك كفا مفتوحة مسترخية كأنها قطعة من الجبن الطرى لاعظم فيها ولا أعصاب لها ، فاذا تناولتها وقبضت عليها لم يبادلك ذلك بل ترك كفه لك تصنع بها ما تشاء ، ثم يسحبها فى فتور وضعف ؛ فتخجل وتبرد الحرارة التى تناولت بها يده ، ويجمد الدم فى عروقك .

وانصرفنا عن الأمير بعد السلام عليه ، الى غرفة أخرى ذهبوا بنا اليها وهناك سقونا عصير الليمون ، ثم مالبثنا أن دعينا الى الأمير فدخلنا وجلسنا وهنأناه مرة أخرى وأديرت علينا القهوة النجدية ، وأمرها عجيب ، ذلك أنها خليط من البن والمرى والحبهان ولا أدرى ماذا أيضا ، وطعم البن يختفى بين هذه الاخلاط الحريفة ، ويجيئونك بها فى أبريق كبير من النحاس ، يحمله الخادم فى يسراه ، وفى يمناه الفناجين الكبيرة بعضها فى بعض فيصب من الابريق مقدار رشفة فى الفنجانة ويقدمها لك فتقلب الفنجانة على فمك وتهزها لينحدر مافيها بسرعة ، فاذا راقتك القهوة مددت يدك بالفنجانة فى صمت فيصب لك رشفة أخرى وهكذا ، وإلا هززت

الفنجانة فينصرف عنك

وقد كنت وأنا فى مجلس الأمير متعبا وكان رأسى أحسه ثقيلا ، وخفت أن انام أواهوم، فقلت انبه نفسى بالقهوة ،فرجوت من الخادم أن يملأ لى الفنجانة فان هذه الرشفات الضئيلة لاتصنع شيئاً ولكنه آثر عادته فذهب يصب لى رشفة بعد أخرى وأنا أناديه بعد كل واحدة و أرده الى ، ولا أناوله الفنجانة مخافة أن يذهب عنى فلا يعود ، فلما تكرر ذلك أربع مرات خطف الخادم الفنجانة وصاح وهو يمضى عنى ضاحكا « يارجل ! »

فقمت وراءه وأنا أقول « ماهذا الكلام الفارغ؟ أريد قهوة حقيقية لا لونا فى الفنجانة ! تعال هنا ! »

فاسرع الى واحد من الحاشية يسألنى ما الخبر .

قلت « الخبر أنى أريد أن اشرب قهوة حقيقية ، وهذا الرجل يضحك على و يقدم لى دهانا فى قعر الفنجانة لايسيل ولا يصل الى حلقى منه شىء . هذا هو الخبر — ثم هذا لسانى (وأخرجته) . بذمتك هل ترى عليه أثرا للقهوة ! »

فقال الرجل « لاعليك . تعال ياهذا . أترع له الفنجانة » وقد كان .

وكفوا بعد ذلك عن مخادعتى بلون القهوة وصاروا يجيئوننى بها فى كل مكان قهوة حقيقية لاشك فيها ولا فى مقدارها ولا فى طعمها .

ولا فى أثرها . ولكنها سرقت النوم من جفونى ففهمت لماذا يكتفون منها برشفة .

وعدنا الى دار الضيافة لنستريح فاتفق ان لقيت فى الطريق واحدا لم اشك فى انه نجدى وكان فوق نجديته قصيرا ، فاقبلت عليه وقلت هذه فرصة ، وقلت :

« كيف حالك ؟ ان شاء الله بخير » .

واهويت على كتفه فجذبتها على نحو ما رايتهم يفعلون ومططت شفتى استعدادا لتقبيل انفه ، ولكنى لم احسن قياس الابعاد وعمل الحساب اللازم ، وجاءت الجذبة اسرع واشد مما ينبغى فوقع فمى على فمه واصطدم الانفان

فلما افاق من دهشته ، قلت له على سبيل الاعتذار ، وانا اتلمظ وامصمص بشفتى :

« لا مؤاخذة ! لقد اردت ان اقبل انفك ، ولكن التدريب ينقصنى . على كل حال ، الخيرة فى الواقع . السلام عليكم » .

وذهبت أعدو ولحقت باخوانى وهم يهمون بالعودة الى وقد توهموا لبلاهتهم اننا اشتبكنا فى مصارعة .

بين مكة والكندرة

اشتهيت وأنا جالس فى « دار الضيافة » ، أن ادخن « نرجيلة » او « شيشة » كما يسمونها فى مصر ، ولست من هواتها ، ولكنى افتقدت منظرها فى مكة ، وكنا فى جدة ، كلما دخلنا فى بيت يجيئوننا بعدد من هذه النراجيل على اشكال شتى وحجوم مختلفة وألوان عدة ، فمنها ماهو من الفضة او المعدن المنقوش أو المطلى بالذهب ، ومنها القصير والطويل ، والذى فيه صنعة والساذج الغفل ، والذى خرطومه من المخمل الأرجوانى او الأخضر ، الى آخر ذلك مما لاموجب للتقصى فيه . واهل جدة يستعملون للنرجيلة طباقا معالجا بالعنبر ومائة مادة اخرى لم أسمع بأسمائها من قبل ، تجعل له أرجاً قويا وتترك المرء — على ماسمعت — بحلم .

ولم أفهم لماذا تكثر النراجيل فى جدة ، ولا أثر لها فى مكة . وخطرلى — على سبيل التعليل — أننا هنا ضيوف الحكومة والحكومة لاتدخن ولا تسمح بالتدخين ، على الأقل فى خضرتها ، وفى دورها . غير انى لم استرح الى هذا التعليل ، وقلت

إن الأعيان الذين يحفون بنا كان يسعهم ان يقترحوا علينا أن يجيئونا بواحدة ، فانا مصريون ، وما لايجوز للمكى جائز للمصرى ، ثم انهم يدخنون السجاير فلم لايتخذون النراجيل ، وكله تدخين ؟ وعلى ذكر السجاير أقول إن القوم فى الحجاز لايعرفون منها سوى صنف واحد رخيص ردىء هو بعض ما يصنعه ويصدره اليهم « ماتوسيان » . وقد يكون فى رخصه شك ، ولكنه ردىء على التحقيق ، يتخذه السائق كما يتخذه الوجيه السرى . فالديموقراطية كما ترى بخير هناك ، وابرز عناصرها وأقوى مظاهرها هو « ماتوسيان » .

واعود الى ما استطردت عنه ، أعنى الى النرجيلة ، فأقول انى اشتقت ان اضطجع على واحدة من هذه الحشايا الوثيرة وأتكىء بكوعى على حسبانة صغيرة وان أضع رجلا على رجل وأدنى خرطوم النرجيلة من شفتى وارسل الدخان الكثيف الى رئتى ومعدتى بل الى اخمص قدمى ، ثم ارده من فمى وانفى وعينى واذنى وانفجر بالسعال القوى كأن بركانا انطلق من جوفى ، واظل بعد ذلك بضع دقائق والدخان يخرج من مسام بدنى كلها كأنى بيت من الخشب اندلعت فى جوفه نار الحريق ، كما رأيت اهل جدة يصنعون .

ولكنى ضبطت نفسى ورضتها على الحرمان من هذه المتعة البريئة ، كما رضت شيطانى على الكف على ابتغاء الويسكى ، وآلمنى

ذلك ـ كما يسهل ان يدرك القارئ بغير عناء ـ فرأيتنى أناجى نفسى واعزيها بأن أهل جدة مدللون على خلاف أهل مكة ـ هناك ، اى فى جدة ، يجتلى المرء مظاهر الترف والنعمة ، ويحس ان القوم دلالا على الحكومة ـ او دالة إذا شئت ـ وان الحكومة توليهم من الرعاية والمجاملة والتسامح ماليس له مشبه فى مكة ، وتطلق لهم فى امور نصيبها منها فى مكة التشدد . ولقد قضينا فى جدة أياما لم نشعر فى خلالها بأن للحكومة وطأة تحس ، ولكن أثر الحكومة ووجودها ملموسان فى مكة فى كل مكان .

وقد أكون أولا أكون مبالغا فى هذا الذى عزيت به نفسى عن حرمانى لذة النرجيله ، ولكنى أعتقد أنى غير مخطئ جداً فيما شعرت به من الفرق بين الحالتين فى جدة ومكة من حيث سلطان الحكومة ، فان قائمقام جدة أى حاكمها ، تاجر ، وهو يجمع بين التجارة وبين أعمال وظيفته . وخليق بالمصرى أن يعجب لهذا وأن يرى فيه شذوذاً عن المألوف فى بلاده حيث لا يؤذن للموظف أن يشتغل بالتجارة . ثم أن من الحقائق التاريخية أن الجيش السعودى دخل مكة بعد فتح الطائف من غير أن يتلبث أو يتلكأ ، ولكنه لم يقتحم جده بل أقام حولها وعلى مسافة بعيدة عنها يضرب عليها حصاراً خفيفاً ليناً لا يمنع أن يتصل ما بينها وبين مكة . ولعله فعل ذلك حتى لا يقطع المؤن عن مكة ، ولكن من المحقق

أن الدافع الأول الى ايثاره الحصار واجتنابه أن يحاول فتحها عنوة أن فى جدة قنصليات أجنبية ، وقد خشى السعوديون أن تصاب دورها أو أحد رجالها بسوء فتتذرع إحدى الدول بذلك وتتخذ منه مسوغا لاحتلال جدة أو غير ذلك مما يجرى مجراه ، فبقى الجيش محيطا بجدة شهوراً حتى نفد المال وانقطعت موارده عن الملك السابق على بن الحسين ، وتأخرت رواتب الجند وفشا عليه الأمر ، فسلمت المدينة وأبحر منها على بن الحسين على بارجة بريطانية محتفظا من كل ملكه الذى نزل عنه « بسيارته وسجاجيده وخيله » ؟؟

وكأنى بوجود الأجانب فى جدة قد جعل لها مع الأسف مركزاً خاصا وبسط عليها ضربا ملطفا من الحماية العامة وجعل الحكومة تتخذ حيالها مسلكا هو فى جملته ألين من مسلكها فى البلاد الأخرى . ويقينى انه لو كانت الحكومة السعودية اقوى مما هى وأوفر عدة واتم سلاحا واقدر على الدفاع عن شواطئها وثغورها لاختلف الحال وتغير الموقف ، ومن اجل ذلك يتوخى جلالة الملك ابن السعود السلم ويؤثرها على الحرب والنزاع ، وذلك ليتسنى له ان يصلح أموره ويرتب البيت ، كما يقول الافرنج ، ويعالج مشاكله ويوطد حكومته ويقويها ويباشر ما لا مفر منه من وجوه الاصلاح على قدر ما تسمح بذلك موارده .

وقصدنا بعد ان استرحنا الى وكالة المالية ، ويتولاها نجدى قح ، قال لى المستر فيلبى أنه من امهر الرجال واذكاهم واحذقهم فى سياسة المال ، وغرفته بسيطة وفيها مكتب اجلس انا فى مصر الى واحد أنخر منه وأجمل ، وهناك تفضل سمو الأمير فرد لنا الزيارة وأذن ان نصور معه ، ثم رغبت الحاشية ان تصور هى ايضاً فكان لها ما ارادت . والنجديون يسمون الصورة الشمسية « العكس » ولا يرون فى التصوير بأسا ولا يكرهونه كما كنا نسمع .

وفى وكالة المالية القيت خطب ترحيب — لا اذكر الآن بمن على وجه التحقيق — وتهنئة للأمير وجلالة والده بلا أدنى ريب . وهناك ايضاً جئ باثنين من الحجازيين ، هما موظفان فى حكومته وعملهما طبع « طوابع البريد » ، فقدمهما الوكيل الى سمو الأمير واطلعه على انموذج من الطوابع التى عملت تذكاراً لهذا اليوم — يوم المبايعة .

وزرنا بعد ذلك المستشفى وهو رحيب يسع مائتى مريض ، وبه أقسام شتى للجراحة والأمراض الباطنية ، وامراض النساء وغيرها ، وفيه اطباء مصريون ، وبئر ارتوازية حديثة تمده بما يحتاج اليه من الماء ، ثم قصدنا الى دار الكسوة التى اسلفت الكلام عليها ، ومن ثم الى التكية المصرية وهى تؤدى واجبا انسانيا جليلا .

***

وجاء وقت الغداء فتناولناه فى دار الضيافة على الطراز الأوربى أيضا ، ولشد ما تمنيت لو نأكل مرة على الطريقة العربية او البدوية ولكنهم فى الحجاز ابوا ذلك علينا وضنوا بمتعته ، واحسبهم توهموا ان اطعامنا على الطريقة العربية غير لائق ، او ان ذلك ينطوى الى شئ من الاستخفاف بنا ، او هو ينافى ما يقتضيه واجب الاكرام .

ثم ذهبنا الى السوق ، وهو على المسعى ، وقد كرهت ان أرى الدكاكين فى بناء الحرم نفسه ، وملنا الى حارة ضيقة شبيهة بخان الخليلى فى مصر ، وفيها كل ما فى الخان ، والتجار فيها خليط من أهل مكة والهنود والفرس وغيرهم ، وأكثر ما فى السوق هندى أو فارسى ، ودخلنا دكان هندى طويل له مساعدان ، فزاغت أبصارنا وضلت عيوننا بين الطرف المعروضة وكان كل امرئ يتكلم ويطلب شيئا ويسأل عن ثمنـــه ، والمساعدان يقدمان ما نطلب ويحيلان من يسأل عن الثمن الى الهندى الطويل ، ولم يكن معى ولا مع زميل لى مال ، فقد خلفنا ما معنا فى جدة ، فاقترضنا من اخواننا ، ولم تكن الأثمـــان معتدلة ولا الحساب بالنقود الحجازية بالذى يسهل فهمه ، ذلك أن الجنيه المصرى يساوى عشرة ريالات حجازية ، والريال عشرة قروش ونصفه خمسة وهكذا ، ولكن الاطراد يقف هنا ، فاذا ذهبت تحسب الجنيه بالقروش

وجدته يساوى شيئاً عجيبا : مائة قرش و بضعة قروش أخرى تكون تارة اثنى عشر قرشا وطوراً أربعة عشر ، وما أظن به الا أن قيمته بالقروش تضطرب تبعا لحالة الجو ، فما فى مكة ولا فى جدة بورصة ، واذا كانت القيمة ثابتة لا تتغير وكنت أنا المخطىء فالذنب للتجار وليس لى ، فقد كنت أجد قيمة الجنيه عند تاجر غيرها عند سواه ، واتفق أنى كنت أتوغل فى السوق فالفيت القيمة تهبط بعد كل خطوتين قرشا ، فخفت اذا أنا مضيت فى طريق داخلا فى السوق ألا أدنو من آخره الا وقد صار الجنيه قصاصة ورق كالمعاهدات الدولية ، بل خفت اذا أنا بلغت نهاية السوق أن أجد أنى أصبحت مدينا !! لذلك ارتددت بسرعة وليت خارجا ـ لاهاربا ـ الى أول السوق ، وفى يدى جنيه منشور ـ مما اقترضت ـ ألوح به للتجار وأصيح رافعا القيمة بعد كل بضع خطوات :

« ألادو ! ألانريه ! يابلاش ! بمائة وعشرين ! ألادو ! بمائة وخمسة وعشرين . . . »

فلو طال السوق لرجوت أن أفيد الغنى أو أشترى مكة كلها بجنيهى ! ولكن التجار أشفقوا وخافوا مغبة هذا التقدم فوقفوا فى وجهى يردوننى الى داخل السوق ويشورون فى وجهى كما يفعل الناس ليصدوا جواداً جامحاً ! وتنبهت الحكومة الى الخطر المحدق

بعاصمتها فأقبل على واحد من كبار رجالها يقول :

« لقد ركب الأمير فهلم لتلحق به »

ولكنى كنت مشغولا بفرصة الغنى التى أتاحها لى ارتفاع قيمة الجنيه فى أول السوق وانخفاضه عند آخرها ، فلم أعبأ به ومضيت أصيح :

« قبل أن نركب ! ألادو ألاتريه ! أبيع بمائة وأربعين ! هل من مزايد ؟ بمائة وخمسين ؟ »

فجذبنى الرجل وفى وجهه كل أمارات الفزع والارتياع وصاح بى :

« يا أخى أجول لك ! الأمير ركب ! يجب أن تلحقوا به لأن المسـافة طويلة » .

فأدركت أنه يريد أن يصرفنى عن ربح حلال وقعت عليه بذكائى ، فنحيته عنى وانطلقت أعدو إلى أول السوق ثم وقفت ألهث وقدرت فى نفسى أن تكون القيمة قد بلغت عشرة آلاف قرش ، وهممت باستئناف المناداة وإذا بالقوم يحملوننى ويضعوننى فى السيارة ! وانطلق بها السائق كأنه يفر من الموت ، فقعدت وأنا أقول لنفسى : « إن هذا ليس من الإنصاف فى شىء ! وسأظل ما حييت أطالب الحكومة الحجازية بما أضاعت على وبالتعويض أيضاً » !

ولن يضيع حق وراءه مطالب » . وغلبنى النعاس فى الطريق الى جدة واستغنيت بالأحـــلام عن حقيقة مافاتنى ــ كدأبى أبداً

***

والكندرة قصر على دقائق من جدة ، وفيه نزل جلالة الملك عبد العزيز لما سلمت ، واستقبل أعيانها وممثلى الدول فيها قبل أن يدخل جدة فى اليوم التالى ، وفى هذا القصر أقيمت حفلة الشاى التى حضرها الأمير وسبقنا سموه اليها ، ولا عجب ، فان سموه يركب الرولزرويس ولا يتلكأ فى الأسواق ولا يزيغ الغنى من وراء اضطراب قيمة الجنيه بين التجار ، ونحن نفعل ذلك — ولنا العذر — ونركب سيارة يأبى سائقها « صابر » أن يسرع بها لئلا يفسدها لأنها جديدة ، ولأنه هو على ظرفه وفصاحته حنبلى جداً .

ولا حاجة بى أن أقول شيئاً عن الشاى فانه ككل شاى ، وقد شربناه واقفين حول نحو عشرين الى مائدة مثقلة بأباريق الشاى واللبن وألوان الفطائر واللمائز والولائق والرصائع ، وكان ممثلو الدول يحفون بالأمير ، والقائم باعمال المفوضية البريطانية ووزير الروسيا المفوض يتنافسان على الحظوة عنده ويتسابقان الى اكتساب وده ، أما نحن الذين لم يكن لنا من عمل أو هم فى الحجاز سوى بطوننا .

فقد آثرنا مائدة أخرى ليسعنا أن ندخن كما نشاء ، وقد حمدنا لهـذين الممثلين المتنافسين أنهما شغلا الأمير عنا بالحاحهما عليه ومطاردتهما له .

ثم خرجنا لنشهد عرض الجيش، فى الفضاء الذى أمام القصر، ووقف سمو الأمير وأدنانا من صفه لتتيسر الرؤية ، فمر المشاة النظاميون فى ثياب الخاكى ومعهم أسلحتهم المختلفة ، ثم تلاهم من سميتهم حينئذ الباشبزوق وأنا أعنى بهم البدو ، فى ثيابهم الفضفاضة المختلفة الألوان ، وكانوا على كونهم بدوا يمشون صفوفا منتظمة ، وجاء بعدهم الفرسان ثم الهجانة صفوفا متراصة لاتلتوى ولاتتعوج ولا تختلف كسوتها ولا يسبق جمل جملا ، وعليها « الرجاجيل » كما يسمون « الرجال » مثقلين بأدوات الكفاح ، وأعقبت هؤلاء المدفعية بأنواعها من مدافع رشاشة وأخرى جبلية أو للميدان أو غير ذلك مما لاأحسن بيانه وتفصيله ، فما أعرفنى رأيت من أنواع السلاح إلا ما يلعب به الأطفال فى الأعياد ، ولقد كنت فى الحجاز كلما رأيت رجلا مدججاً بالسلاح أرانى أدنو منه وأمد يدى ، وقد هممت أن ألمس سلاحه وأتحسسه بكفى — فلولا الخوف من أن يظنوا بى انى أريد السرقة أو الخطف ، لأمتعت نفسى بلمسه .

وأبصرنا من بعيد محملا صغيراً مقبلا علينا فعجبت لهم كيف يعدون المحمل المصرى صنما ثم يتخذون محملا مثله ! وأشار الأمير بيده إشارة خفيفة لم يدرك أحد منا وقتئذ معناها أو المراد بها ، وحسبناها أمراً بأن يكر الفرسان على نحو ما يفعلون في الحرب ، فقد عادوا واحدا فى أثر واحد يخطفون الأرض بخيلهم ويتصايحون وقد رفعوا الرماح أو صوبوا البنادق أو شهروا السيوف ، وأشهد أن مناظرهم كانت مزعجة وأصواتهم مفزعة ، ولو رآهم القارئ وهم يعدون بجيادهم و يطلقون البنادق من وراء ظهورهم ويطعنون الهواء بحرابهم وشعورهم منفوشة لحسبهم بعض الجن .

وصفق الناس والتفت الأمير باسماً ودار ليرجع فسألت واحداً « والمحمل؟ لماذا لم نره ؟ »

فقال : « لقد غاب »

قلت : « غاب كيف ؟ »

قال : « لم يبق له أثر »

قلت : « ماذا تعنى ؟ »

قال : « أمر سموه به فأبعد »

وعلمنا بعد ذلك أن سموه كره لنا أن نرى هذا المحمل بعد أن

انقطع المحمل المصرى، وكان أحد التجار قد صنعه وكساه من تلقاء نفسه فلما لمحه الأمير أومأ الى حاشيته أن يردوه فأخطأوا فهم مراده فحملوا عليه وحطموه ومزقوه . فكأنه لم يكن !

الى هذا الحد كان سمو الأمير دقيقاً فى مجاملتنا ومراعاة إحساسنا .

***

وقيل : اذكروا أنكم مدعوون الى مأدبة عشاء فى قصر الكندرة وأن هذه المأدبة رسمية تقيمها وزارة الخارجية أو إدارتها ، وأن سمو الأمير فيصل سيحضرها ، وان ممثلى الدول الأجنبية سيشهدونها كذلك. فسالت عن موعد هذا العشاء فقالوا الساعة الثالثة بالحساب العربى ، فتناولت ورقة وقلما وألقيت نظرة على ساعتى الافرنجية وشرعت أحسب ، ولا أكتم القارىء أنى أخيب خلق الله فى الحساب ، ولقد غلطت وزارة المعارف (المصرية) مرة ـ منذ نحو عشرين سنة ـ فكلفتنى أن أدرس هذا الحساب ، فاعترضت واحتججت ، فما أجدى عنى اعتراضى شيئاً ، فقصدت الى «ناظر» المدرسة الخديوية التى نقلت اليها ـ وكان انجليزياً ـ وقلت له : « إن وزارة معارفنا تعتقد أن كل امرىء يصلح لكل شىء ، ولكنى عرف من نفسى أنى لا أصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب

خاصة، وأصارحك أنى لاأصدق أن واحدا فى واحد يساوى واحدا « هذا » كما يقول شاعر عربى « كلام له خبىء » ، معناه ليست لنا عقول » .وقد تكون أولاتكون لنا عقول ، هـذه مسألة خلافيـة ندعها الآن ، ولـكن المحقق عندى أن العلوم الرياضية وفى جملتها هذا الحساب لاتدخل فى دائرة عقلى ، فهل لك فى عونى عـــلى ما أريده ؟ »

فضحك وقال : « وماذا تبغى ؟ »

قلت « تعفينى من التدريس للفرق العالية ، وتقنع بأن تكل الى تلاميذ الفرقة الأولى ، أعنى الحاصلين على الشهادة الابتدائية فى هذا العام ليتسنى لى أن أحفظ الدرس أو لا فأولا ، ثم ألقيـه عليهم ، فنتعلم معاً ، وفى خلال ذلك تبذل وساطتك لتردنى مدرس ترجمة كما كنت

فسرته صراحتى ووعدنى خيراً ، وشرعت فى العمل ، وكنت أحفظ الدرس جيداً وأراجع زملائى ثم أدخل على التلاميذ وألقنهم ما حفظت ، وقد وفقنى الله فى الهندسة والجبر ، أما الحساب فأعوذ بالله منه ! ! كنت أخطىء فى كل مسألة أطرحها على التلاميذ ، ولم أكن أكتمهم أنى أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لى ، وان الوزارة هى المسئولة عن خلطى وتخبطى ، وانصف التلاميذ فأقول انهم قبلوا عذرى واغتفروا لى ضعفى وحفونى بعطفهم ولم يبخلوا

علي بايضاح مايشكل علي وبهدايتي الى الصواب حين أضل ، وكنا أحيانا ـ اذا استعصى عليهم افهامي طريقة الحل ـ نقضي بضع دقائق في ندب سوء حظي وحظهم ، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت نفسه بالعطف علي والمرثية لي « كيف ترتكب الوزارة مثل هذا الخطأ الشنيع فتعهد الى تدريس العلم الى جاهل به ؟ »

فيحمر وجهي أو يصفر ـ لا أدري فما كانت أمامي مرآة ـ وأقول له بلهجة الصابر على قضاء الله فيه .

« أنا عارف ؟ قل لها ياسيدي ! الأمر لله والسلام »

ولم ينقذني الا مفتش انجليزي جاء على عادته ليشرف على سير الدراسة ، فعلمت أنه مع الناظر في غرفته ، وكانت مجاورة للغرفة التي أنا فيها ، فأوصيت الخادم ـ أو الفراش كما يسمونه ـ بأن يدعوه الى ، حين يخرج ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فلما دخل علي رحبت به واحتفيت بمقدمه وسرت به الى مقعدي ومكتبي ، وهناك سلمته كراسة التحضير وكراسة الأسماء ، وأصبع الطباشير ومسحة السبورة وقلت له

« التلاميذ أمامك ، ومعك كراساتي وأدواتي ، فالسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وخرجت ، فجرى ورائي وأدركني أمام غرفة الناظر وقال :

« ان هذا جنون . فعد الى فرقتك »

فقلت « جنون ؟ وهل كنت تنتظر أن أظل عاقلا ؟ لقد صارحتكم مائة مرة بانى حمار ، فماذا تريدون ؟ ان لى ذمة ، وذمتى لا تقبل أن أضيع على التلاميذ المساكين سنة من أعمارهم »

قال « ولكنى اكدت لك أننا لا نجد مدرساً للرياضة فيحل محلك . فانتظر حتى نجد واحداً ثم نعيدك الى الترجمة »

فقلت : « كلا ! تتولى أنت التدريس حتى تجدوا المدرس . وانا مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفتيش »

فضحك ، وضحك الناظر وكان قد خرج على صوتنا ولا أطيل: أقنعانى بالعود الى فرقتى على ألا يطول عذابى إلا أياما معدودات. وقد كان .

وقد قصصت هذا التاريخ القديم ليعذرنى القارىء اذا كان قد عزنى أن أعرف الوقت بالحساب الافرنجى ، ولقد ملأت والله الورقة كلها بالأرقام لأعرف كم تكون الساعة بالحساب الافرنجى فى الحجاز اذا كانت الثالثة بالحساب العربى فى الحجاز أيضا ، فالفيتها تكون كل ساعة مابين الأولى والرابعة والعشرين الا التاسعة مساء كما زعموا ، وقد اتفق مرة أن انتج حسابى الساعة التاسعة ولكنها كانت التاسعة صباحا ! فمزقت الورقة يائسا ورميت القلم من النافذة .

وملت الى واحد وهمست فى أذنه

« أرجو أن تصدقنى ! كم ساعة باقية لنا قبل هذه المأدبة ؟ »

فاخرج ساعة ونظر فيها وقال « ساعتان ونصف »

فقبلته بين عينيه وقلت له « انك آية من آيات الله فى الذكاء وحدة الذهن . ولوكان الحسد فى طبعى لحسدتك . فان من المدهش ولا شك ان تستطيع عمل كل هذا الحساب المضنى فى ربع ثانية ! فتح الله عليك ! فتح الله عليك ! »

وخرجت أعدو الى غرفتى و وقفت أمام المرآة وقلت لخيالى فيها « اسمع يامازنى . ان هذه المأدبة رسمية وسيحضرها وزراء الدول وقناصلها فينبغى ان تكون فيها فخراً لبلادك وعنوانا على ما بلغته من الحضارة والرقى ، لا عاراً عليها وسبة لها ، فالبس ثياب السهرة وان كانت من طول ما طويت فى الحقيبة قد تجعدت وتثنت وصارت كالوجه الذى غضنته الشيخوخة ، ولكن هذا حرى بأن يغتفر فى الحجاز . وعندك فى هذه الحقيبة كتاب فى آداب السلوك فى المجتمعات فأخرجه وادرسه بسرعة ، فان فى ساعتين الكفاية ، أفهمت ؟ اذن فالى العمل ! »

وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير وفتحتها بسرعة وأخرجت بذلة « الاسموكنج » والقميص الأبيض والرباط الأسود ، وسائر ماتتطلبه هذه البذلة ، و نضوت ماعلى بدنى من الثياب ، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته وقعدت على السرير أدرسه

وأنا نصف عار وأجريت عيني فى الفهرس حتى استوقفني هذا العنوان.

«فن الانحناء»

ففتحت الصفحة التي يشير اليها الفهرس وقرأت وأنا كالمسحور، ماترجمته

« ان الانحناء، ولمن يكون وكيف يكون وفى أى وقت يكون، فن قائم بذاته، « واتقان ذلك وتجويده، والحذق فيه والأستاذية، اكبر ما يمتاز به الرجل المهذب »

فخفق قلبي طربا وشاع فى السرور علوا وسفلا، وبعد أن قضى بدنى وطره من الوثب والقفز - او الرقص اذا آثرنا الرقة فى التعبير - عكفت على الكتاب لالتهم منه هذا الفن الجليل فقرأت

« وأول مايجب على المرء، أن يكون وضع القدمين كأول وضع لهما فى الرقص »

فكفأت الكتاب على ركبتي وذهبت أحضر الى ذهني وأتمثل هذا الوضع الأول فى الرقص، فطافت برأسي صور شتى للاقدام كما كنت أراها فى المراقص المصرية، غير أنه مامن صورة كانت

تشبه الأخرى ، فألححت على خيالى وكددت خاطرى وحصرت ذهنى فى هذا الموضوع وطردت عنه كل ماعداه حتى صار رأسى وليس فيه الا أحذية « ضاحكة اللألاء ، تروح وتجىء وتنساب تحت السيقان الـ . . . . . »

وخفت ان أترقى فى التصور من الأحذية الى مافوقها فيتم فساد العمرة التى أفسدها المطوف وأشياء أخرى حدثتك عنها فيما أسلفت عليه القول .

ثم قرأت

« وترفع اليد اليسرى بخفة ورشاقة وتوضع أطراف بنانها على الصدر فوق القلب ، ثم يحنى الرأس ويليه الجسم مما يلى الردفين وتكون اليد اليمنى فى أثناء ذلك ترسم فى الهواء خطا مقوسا بلباقة وإناقة » ، ومما ينبغى توخيه والتدقيق فيه والحرص عليه أن « يكون تعبير الوجه فاتنا على قدرما يستطيع صاحبه ، ونظرة العينين سابية ساحرة . » أما درجة الانحناء فرهن بمقام الشخص الذى له التحية ، الخ الخ

وطويت الكتاب وأطرقت ، فما كنت أظن الانحناء يمكن أن يكون عملا معقدا الى هذا الحد ؛ ومن لى باللباقة ومن أين أجىء بالرشاقه إذا وسعنى ان أؤدى هذه الحركات ؟ ان كل ما أحسنه هو ان اهز رأسى هزا متتابعا — من أعلى الى أسفل ، أو

من اليمين الى اليسار - إذا أردت الاعراب عن الموافقة أو المخالفة كسلا منى عن النطق بنعم أولا ، وقد ألاقى فى الطريق بعض من أعرف وتكون بينى وبينه مسافة تمنع الكلام فأحاول ان أومىء اليه برأسى واذا به يتجهم ويحدجنى بالنظر الشزر ، فاعجب لسوء أدبه فى رد التحية ، وقد تبينت فيما بعد أنى لم أكن أهز رأسى بل أحرك حاجبي فكان الناس يحملون هذا منى على محمل السخرية ولو علموا لعذروا .

وقلت أتدرب ، فوثبت الى قدمى واستويت واقفا أمام المرآة وقلت وانا ابتسم لخيالى فيها وانحنى :

« ياسيدى الأستاذ المازنى انى أحييك وأؤكد لك انى خادمك المطيع وأدعو لك بطول العمر » ثم اعتدلت بسرعة فقد شق على منظرى ، وكنت لا أزال نصف عار ، وعجلت بارتداء الاسموكنج حتى اذا فرغت من ذلك خرجت الخطر وانحنى بعد كل خطوتين او ثلاث انحناء عميقا كأنى ماثل بين يدى ملك الملوك على الأقل أو أفتن امرأة فى العالم واذا بطربوشى تكبسه على رأس بطن الخادم فتراجعت قليلا لأفسح لنفسى ورميت اليه انحناءة عميقة وقلت وعلى فمى ابتسامة لم يخالجنى شك فى عذوبتها وسحرها

« سيدى انى اعتذر وأحيي فى شخصك فضائل الطاعة

والاخلاص والأمانة »

فارتبك المسكين وجحظت عيناه وتصبب العرق البارد من جبينه وصار يتلفت يمنة ويسرة كالذى يبحث عن نافذة يثب منها حتى اذا وقعت عينه على الباب ولى هاربا ، فتلبثت هنيهة أصلح من شأنى وأرد طربوشى عما جار عليه من وجهى ولما لم أجد أمامى او معى أحداً من خلق الله استقبلت الباب وألقيت اليه انحناءة بارعة واذا باصوات من خلفى تصيح بى:

« إيه ده بس فى عرض النبي ؟ طلعت البلا على جتة الخدام »

فدرت على عقبي وجدت عليهم بانحناءة متقنة وقلت وانا أرسم بيمناى قوسا مزدوجا :

« سادتى . انى عبدكم الخاضع المطيع وخادمكم الوفى الأمين »

فقال أحدهم وهو يشور بكلتا يديه كأنما يطرد عن وجهه جيشاً من الذباب

« خادم إيه وزفت إيه ؟ هل جننت حتى تنحنى للباب وللخدم والهواء ؟ ما معنى هذا ؟ »

قلت « عفواً ، ولكنى أظن المعنى واضحاً جدا . وكل ما فى الأمر أن الشوق الى الانحناء لج بى ولما لم أجد خيراً من الخادم او الباب لم أر أن هذا من حقه أن يحول دون إطفاء حرارة الشوق الذى اكابده ، فأما وقد تفضلتم على بالظهور لى فى الوقت المناسب

فاسمحوا لى أن أقوم بتجربة أخرى على مرأى منكم وأرجو أن تجعلو بالكم على الخصوص ـ الى سحر ابتسامتى فانى أريد أن اطمئن عليها »

ورددت قدمى اليسرى خطوة ورميت الى كل منهم انحناءة باهرة ، فوجموا قليلا ثم راحوا يدقون كفاً بكف وقال أحدهم « هذا جنون مطبق » .

فقلت « كلا ! ولكن عندى كتابا يؤكد واضعه ان الانحناء البارع أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب .وانا مستعد أن أعيركم إياه فان العلم بما فيه ينقصكم على التحقيق . »

ولا أطيل . عراهم سهوم الحسد. فجلسوا صامتين برهة ثم نادى أحدهم الخادم أو صفق له على الأصح وقال لى قبل أن يدخل الخادم .

« لا أدرى من أين تجئ بهذه الكتب ، وان كنت عظيم الشك فى وجود كتاب كهذا ، ولكن الذى أريده ان الخادم قد ارتاب فى عقلك فارجو ـ ألح عليك ـ أن لا تفعل امامه شيئا وكفى ما فعلت » .

- فلم أعن بالرد عليه وشربت القهوة التى طلبها فى صمت ، فقد كنت راضياً عن نفسى معتزاً بما أحرزت دونهم من براعة وحذق .

* * *

والجو فى الليل يبترد فى جدة ، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء (بالحساب الافرنجى) على مازعموا حين أعدت لنا السيارات لركوبهـــا الى الكندرة ، فقلت لسائقنا الجديد وكان هنديا ـ فقد هجرنا صابر وملنا وجفانا بعد مكة ـ « انزل الغطاء فانى أريد ان تكون السيارة مكشوفة »

فصاح زميلى «ولكن الجو بارد والرياح عنيفة »

فقلت « اسكت انت من فضلك . أتريد أن نحرم أهل جدة منظرنا فى ثياب السهرة ؟! انه منظر لا يرونه الا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ، وحرام علينا ان نضن به عليهم »

فقال « ياأخى ان الطريق صحراء لا ناس فيه ولا شجر ، فاصنع معروفا ودع الغطاء مرفوعا »

قلت « كلا انا أيضا لاألبس الاسموكنج كل ليلة ، وليس من الانصاف لى ان أرتديها واتحمل عذاب هذه البنيقة (اليـــاقة) الناشفة وان اختبئ وأتوارى عن العيون . اذاً لماذا تجشمت كل هذا التعب ؟ »

ولا أحتاج أن أقول إن زميلى فى السيارة اقتنع بسداد رأيى ، واننا ركبنا السيارة مكشوفة وخرجنا بها من جدة الى الصحراء فى طريقنا الى الكندرة ، ولم تكن المسافة طويلة فقد كنا نرى اضواء القصر بعد أن جزنا سور جدة ، وكان القصر يعج بالناس ويزخر

بالضيفان ، فجعلت اطوف بالحجرات الغاصة بالخلق وأعجب اين ترى سنأكل وليس فى القصر شبر خال؟ وضحكت فى سرى وقد تذكرت قول المتنبي فى كافور

جوعان يأكل من مالى ويمسكنى

كيما يقال عظيم القدر مقصود !

وخطرلى أن هذا حالنا ! ندعى مئات الى القصر ونحجز فيه ولا طعام ! واستحييت أن أسأل وأنسانى القلق على العشاء ، والخوف من عض الجوع ، ما أتعبت نفسى حتى مهرت فيه ـ أعنى الانحناء ـ ولكن وجهى كانت مرتسمه عليه ابتسامة تشجع الناس على المصارحة فدنا منى واحد وقال

« الا تحب أن ترى مكانك من المائدة ؟ »

وهنا تذكرت الفن الذى حذقته فتراجعت وانحنيت ثم استويت وقلت

« سيدى . انى تحت أمرك »

فحملق فى وجهى وتلعثم ، ولا عجب فماله عهد بمثل هذه الأستاذية، ولم يزد على أن قال « تفضل »

فجدت عليه بانحناءة أخرى أدق وأبرع وقلت

« سيدى . انى ارجو أن تتقبل شكرى الخالص الذى يفيض به قلب

يعرف الجميل ولا ينكره و . . . . »

فهرول الرجل ، وبدا لى أن الحزم أن أهرول وراءه لئلا يهرب، أو يختفى فى الزحام، والدنيا كما تعلم فرص، والضيوف هنا مئات . وأى طعام يمكن أن يكفى هؤلاء جميعاً ؟

وانحدر دليلى الهارب ، من سلم خافى لم أره من قبل ولم أفطن لوجوده لأن عليه أستارا مسدلة تحجبه ، وانحـــدرت وراءه الى الصحراء ، أو على الأصح الى رقعة اقتطعوها منها وأحاطوها بسياج من نسيج الخيام الموشى وأضاءوها بالكهرباء والغاز أيضا على سبيل الاحتياط ، ومدوا فيها الموائد على شكل مستطيل و رتبوا المدعوين بأسمائهم ، فلكل مكانه الذى لا يعدوه ، واعتدوا لكل واحد مايحتاج اليه من الأطباق والملاعق والسكاكين وغير ذلك على الطريقة الأوربية ، وأقاموا فى قلب المستطيل فوق بئر يسقى منها القصر، شبه مسرح زينوه بسعف النخل ورفعوا عليه صورة كبيرة لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود ، وجعلوا فوقها رايتهم وهى « بســم الله الرحمن الرحيم » وعليها سيفان لاشك انهما ماضيان . وقد أعجبنى ذوقهم فى حجب البئر عن العيون وحيلتهم بالانتفاع بها واستخدامها .

وآن أن يطعمونا ، وكان هذا قد آن جداً قبل ساعة ، فجلس سمو الأمير فيصل فى الصدر والى يمينه معتمدو الدول الأجنبية ، والى

يساره زكى باشا ونحن نتلوه ، وبين كل اثنين منا رجل من كبراء الحجازيين ، وتوسط فؤاد بك حمزه مدير الشئون الخارجية ضلعا آخر من المستطيل وعلى يمينه ويساره قناصل الدول وفى جملتهم قنصل مصر وان كان غير معترف به ، وهم يدعونه بصفة غير رسمية الى الحفلات ومآدبها على الرغم مما بين البلدين من الجفوة الحكومية المتكلفة التى لامسوغ لها ،

وكان أمام كل نحوثلاثةمن الضيوف ـ فوق المائدة ـ كرسى واطئ عليه طشت كبير غاص بالأرز المحمر المخلوط بالصنوبر والزبيب ومالى ذلك وفوق هذا كله كبش محمر تفوح رائحته المغرية وتتضوع الى أنوفنا فننظر الى الأمير فلا نراه يمسه فنكف ونتنهد ، وقد طافوا علينا بتسعة عشر لونا من الأطعمة الشهية حتى اكتظظنا جداً ولم نعد نستطيع أن نتنفس ، وبرزت صدورنا وصارت لنا كروش كروية عظيمة، وعلى كثرة ما أكلنا ،أعترف انى قمت متحسراً على الخروف الذى كان أمامى ، ولاأدرى لماذا يذبحون كل هذه الخراف الجميلة ويحمرونها اذا كانوا لا يأكلونها ولا يدعوننا نصيب منها شيئاً ؟ وقد خامرنا الشك فى انها خراف حقيقية كانت قبل ساعات تثغو وتقول « مآء ! مآء ! » وقلت لعلها رسوم مجسمة على صور الخراف ، ولكنى لم أر أثراً لهذا الفن فى الحجاز .

ويخيل الى ان حكومة الحجاز تعتقد أن ضيوفها شرهون ،

والا لتوخت بعض القصد فيما قدمته من صنوف الطعام ، فان ما ادبر علينا كان يكفى أمة بأسرها ، على ان العرب جميعا يبالغون فى مقدار ما يطعمون ضيوفهم ، ولعل ذلك راجع الى طبيعة البداوة وما ورثوه من اخلاقها وعاداتها ، ولكنه اسراف على كل حال ، ولو كان لى من الأمر شىء لطالبت الحجر على الحكومة والناس جميعا هناك . .

وخطب فؤاد بك حمزة فى ختام المأدبة لمناسبة انقضاء عام على مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز ، فبين ما قامت به الحكومة السعودية من الاصلاح وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة ، و رحب بالمدعوين جميعا وخصنا نحن المصريين بالذكر الطيب وأعرب عن أمله ان نكون رسل سلام ووئام بين الشعبين الشقيقين ، فأجابه زكى باشا بالنيابة عنا وشكر وأثنى كما ينبغى ثم حمس فانطلق يخطب بالفرنسية ليفهم عنه الأجانب ، ولم يفته أن يشنع علينا لأنا طفنا بالسيارة ، متخذا هذا دليلا على أن الاسلام يتسع لكل ما تجىء به الحضارة ، ونسى – عفى الله عنه – انطوافنا بالسيارة كان باذن سمو الأمير فعلى الأمير حسابه .

فى وادى فاطمة

كان بيتنا – أعنى بيت العوينى – فى طرف المدينة – أعنى جدة – او لعل هذا مبتداها فما أعرف أين بدايتها وأين نهايتها ، وكل ماأدريه أنه قريب من البوابة المؤدية الى طريق مكة والمدينة ، وأنه – أى البيت لا الطريق – يطل على البحر وعلى ما كان فى عهد الأتراك يسمى « الكازينو » ، وهو الآن مهجور . وكان يومنا الخامس هو الخميس ، وهو اتفاق لم نتعمده ، وفى صبيحته احتشد عندنا كل زملائنا اذ كنا على طريقهم . وكان الغداء فى وادى فاطمة ، وكانت السيارات أمام الباب تدور وتلف وتصطف استعداداً للسير ، فجلسنا نشرب القهوة المصرية – أو التركية كما يسمونها – ونتلاغط ونتكلم جميعاً فى وقت واحد ولا يصغى أحد منا إلا لنفسه ،

ثم قيل : « تفضلوا » فتفضلنا ، أعنى أن بعضنا وقفوا ثم نظروا الى الباقين فألفوهم جلوساً ، فقعدوا مثلهم ، فسئلوا « لماذا قعدتم؟» فقالوا « حتى يقوم هؤلاء » فمضى الداعى يستنهض الآخرين

ويشد أذرعتهم وهم معرضون عنه ماضون فى كلامهم ، ويكرر لهم دعوته أن يتفضلوا فيقوم الواحد منهم متثاقلا وكأنه لا يعى مايفعل . ولسانه لايكف عن الكلام ووجهه لاينثنى عن الاعراض . ثم نسير خطوات فيقف واحد ويواجه الباقين ويضطرهم الى الوقوف والاصغاء ، حتى على السلم كان هذا يتكرر فكان يتفق ونحن نازلون أن يقف واحد بغتة ويدير الينا وجهه ، وتكون أرجلنا مهيأة فى هذه اللحظة للهبوط وأجسامنا محنية ، فنردها ـ أعنى أرجلنا ـ بسرعة ، ونستوى واقفين فتصطدم الرؤوس بالصدور التى وراءها ، وترتفع الأصوات بالسخط وألفاظ الاحتجاج والاستهجان . . وهكذا . . .

وأجلت عينى فى السيارات وسائقيها ، فاذا (صابر) ـ ذلك الغلام الحنبلى ـ قد جفانا وآثر علينا سوانا ، فترقرق الدمع فى عينى وتدلى رأسى على صدرى ، فقد كانت صحبته رضية وحديثه شهيا ، وهو على الرغم من شبابه اليافع فتى مخضرم ان صح هذا التعبير ، أعنى أنه أدرك جاهلية الحسين وعهد ابن السعود ، فأفاده ذلك حكمة ليست لسنه وكياسة لاتكون مع الشباب ، وعلماً بالدخائل واطلاعا على الخبايا ، فقد كان كما أسلفت القول فى موسيقى الحرس الخاص بالحسين وبنيه ، وهو الآن عامل فى شركة القناعة للسيارات . غفر الله له وعفا عنه فانه

مصرى مثلنا .

وافسحوا الطريق وانطلقت السيارات . وعزانى أن سائقنا الهندى لا يعرف الطريق - ولا العربية - وان (صابراً) الذى هجرنا ، أمره - لا أدرى بأية لغة فما فهمت كلمة من حديثهما - أن يتبعه ولا يسبقه ، كذلك قال لنا صابر مترجماً ، فأدركت أن فى (صابر) رقة على الرغم من حنبلية مظهره ،

والطريق الى وادى فاطمة هو عين الطريق الى مكة ، ولكنه ينحرف عنه قبلها ويذهب يسرة ويصبح بعد ذلك وعراً ، كله حفر ونقر وصخور وتراب ، وكان الهواء قد أسكرنى فنمت ومن عادتى اذا كربنى هم ان التمس السلوان فى النوم ، وان اتعزى بالأحلام واضغاثها عن الحقائق ومرارتها ، وهذا من فضل الله على ، ولكم قلت لمن يحلو له أن يهجرنى ويحسب أنه بذلك يعذبنى « اذا كان فى وسعك أن تصد عنى فان فى مقدورى أن اصد عن الدنيا كلها والحياة بأسرها انظر » ثم اضع رأسى على الوسادة واغمض جفنى وأقول بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله الحى القيوم الذى لا ينام ، وأذهب من فورى الى وادى الأحلام .

ولكننا لم نكد نميل عن طريق مكة الممهد حتى استيقظت والشرر يتطاير من عينى ، فقد توهمت أن زميلى ضربنى على رأسى

وكبس طربوشي على أذني، وهممت بأن أمسك بتلابيبه - أعني بربطة رقبته - وفي نيتي أن اضيقها على عنقه حتى يختنق ، ولكن الطريق عاجل السيارة بحفرة أخرى ، واذا بي ارتفع عن مقعدي - وحدي بلا معونة - وأطير بقدرة الله حتى أبلغ السقف ، ثم انحط كالحجر ، واذا بطربوشي قد غطى عيني أيضا وهوى الى أرنبة أنفي. ففهمت . وحاولت ان أخرج رأسي فلم أستطع ، فشددت الطربوش من زره ، فبقي الطربوش في مكانه وخرج الزر في يدي ، فأهبت بزميلي الراكب معي أن يساعدني. وكان لسوء الحظ نائما ، وكنت أنا بفضل الطربوش لا أراه ولا أعرف ذلك ، فحسبته يتعمد أن يمنع عني معونته ، وغاظني هذا منه ، وذكرت مثلنا المصري العامي القائل « ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه ، خسرانه » فتوكلت على الله ونطحته في كرشه - فقد كان ذا كرش كما نسيت أن أخبر القارئ - فهب مذعورا يقول « بع . بع » وأندفعت كلتا يديه الى كرشه فوقعت على الطربوش - وكنت أهم بنطحه مرة أخرى - فتزحزح الى آخر المقعد اتقاء للنطحة ، وأحسست أصابعه على حافة الطربوش مما يلي أذني ! فجذبت رأسي الى الوراء فجأة وبقوة فخرج الطربوش في يديه مقلوبا فاعتدلت وقلت له

«اشكرك ياصديقي . والآن هل معك دبوس ؟ »

فصاح بي « مامعنى هذا ؟ أريد أن أفهم ؛ حالا ! »

قلت « معناه ان زر الطربوش فى يدى ، وأنه لايليق ان أبدو للناس هكذا — اعنى بغير زر ، فهات دبوسا واكسب الشكر من صديقك »

قال وهو مقطب « ولكن هذا لايليق . واذا كنت حضرتك تظن . . . »

فقلت أقاطعه « تمام . لا يليق أبدا . ولذلك ارجو أن تعطينى دبوسا . ثم ان اسمى ابراهيم افندى عبد القادر المازنى »

فقال وهو يمط شفتيه اشمئزازاً

« يعنى حضرتك فاهم . . . . »

فاسرعت الى اتمام الجملة بدلا منه « . . انى لا أستطيع ان أظهر بطربوش ليس له زر ، بالضبط ، واسمى ابراهيم افندى عبد القادر المازنى »

فشور بيديه كلتيهما وقال « أوه . . . ! ده شيء يجنن ! »

ثم عاد فالتفت الى وقال

« يعنى إزاى حضرتك تنطحنى ؟ عمرى ماشفت كده ! دى رحله زى الزفت ! »

فقلت « انى أراها على عكس ذلك .. أجمل رحلة قمت بها فى حياتى ، وارجو أن نقوم بها معا مرة أخرى »

ويظهر انه يئس وفوض أمره لله ولسوء حظه فأعرض عنى وهو يقول

« ابق دور على غيرى . »

فقلت « ان شاء الله وان كان هذا من دواعى أسفى – أعنى فى المستقبل ، وفى أثناء ذلك أرجو أن تعطينى دبوسا

فلم يعد يستطيع أن يكظم غيظه وسخطه و نقمته وصاح

« دبوس ايه ياأخى ؟ هو انا دكان مانيفاتوره ؟ ولاحضرتك بتتريق؟ فقلت « معذرة . ليس بى حاجة الى الدكان كلها . انما اريد منها دبوسا واحدا – أو إبرة اذا أمكن ، بل الابرة خير ، وارجو ان تذكر أن اسمى ابراهيم افندى عبد القادر المازنى »

فضحك أخيرا بعد ان ادرك مرادى وقال « طيب وحياة ابوك تبعد عنى بقى ياابراهيم افندى ياعبد القادر يامازنى »

فانصرفت عنه الى السائق واشرفت عليه من ورائه لأرى هل فى صدره دبوس او نحو ذلك ، ففزع الأبله واضطرب وارتفعت يداه عن عجلة القيادة فكادت السيارة تنقلب بنا فى حفرة لولا ان اسرعت ومددت يدى الى العجلة وحولت السيارة عنها – أعنى عن الحفرة – .

ولا أطيل . اضطررت أن أحمل طربوشى فى يدى ، وأن أشكو حرارة الشمس و وقدتها حتى وجدت من يعيرنى دبوسا أصل به الزر الى عنق الطربوش حتى نعود الى جدة .

***

ووادى فاطمة واد – كما هو ظاهر بالبداهة – ولكنه غير ذى

زرع كثير ، فيه نخيل ولاأعناب ، وفيه موز وباذنجان ، وطماطم ولمون ، وملوخية وبامية ، وأحسب هذا كل ما فيه أو أكثره وله عين يترقرق منها الماء ويجرى فى مجرى ضيق يستطيع المرء بأيسر مجهود أن يتخطاه من جانب الى جانب ، واذاوضع يده فيه أى فى الماء – لم تبتل الا عقلة واحدة من إصبعه ، وهم مع ذلك يباهون به ويعتزون ، وقد هززت رأسى أسفا حين رأيته – أعنى الماء – وقلت لواحد كان واقفا الى جانبي وأنا أقوم بهذه التجارب : « ان لنا فى مصر نهراً عظيما ينبع فى جبال القمر على قول ، ومن الجنة على قول آخر أظنه الصحيح ، ويقطع فى طريقه الى البحر الآف الفراسخ ، وتستطيع الأساطيل الضخمة ان تغرق فيه اذا شاءت ، ومع ذلك لا يكفينا ولا نقنع به ، ولا تزال بلادنا اكثرها صحراء بلاقع كما هى هنا . فالحق ان بلادكم أو على الأصح فدافدكم ، تعلم الزهادة وتروض النفس على القناعة »

وهناك فى قلب الوادى رأيناالخيام مضروبة ، واحدة للأمير وأخرى للاجتماع ، وثالثة لموائد الطعام ، فقد جلبوا الى الصحراء ادوات الطعام كاملة لاينقصها كوب من الزجاج ولا سكين ولا ملعقة ، وقد عجبت لهم كيف استطاعوا ان ينقلوها من غير ان تتحطم الآنية كلها !

وكان الأميرقد سبقنا ، والمكانقد ازدحم ، وحف ممثلوالدول

بالأمير فجاءونا بكراسى وصفوها أمامه فجلسنا بينه وبين الناس . وبدأوا يلقون الخطب وينشدون القصائد بين يديه ، يمتدحون فيها العهد السعودى ويصفون ما بلغت البلاد فى ظله وبفضله. وساءنى ان التلاميذ شجعهم اساتذتهم على المبالغة والغلو، ولم ارتح الى سماع كلمات « العلى والمجد والقمة والسنام » الى آخر ذلك مما زعم التلاميذ فى خطبهم ان الحجاز ارتقى اليه ، وقلت لجار لى ـ وأظنه كان حجازيا ـ ان هذه المبالغات السخيفة هى داؤنا جميعاً، واننا جميعا ـ فى مصر والشام والعراق والحجاز الخ ـ أحوج الى مواجهة الحقائق وفتح العيون على الواقع وقياس ما بيننا وبين من سبقنا من الأمم ، وان من الاجرام ان نخدع أنفسنا ونغالطها فى هذه الحقائق ، ومن الجناية ان تنشئوا هؤلاء الأطفال على التوهم ان بلادهم بلغت أوج المجد وارتفعت الى قمة العلى وغير ذلك من الكلام الفارغ . وانه أجدى عليكم ان يعرف كل امرىء مبلغ ما يطلب منه فى سبيل بلاده لتتهيأ نفسه لبذل الجهد الذى يحتاج اليه ، وضربت له مثلا فقلت انى قد أرى شيئاً اتوهمه خفيفاً فأمد اليه يدى لأرفعه وانا غير محتفل ، ويتفق ان يكون ثقيلا على عكس ما تصورت ، فأعجز ، وأخسر وقتا وجهدا فى غير طائل ، ولكنى ، اذا عرفت أنه ثقيل ، أشد أعصابى وأوحى إليها ان تستعد لجهد عظيم يناسب ثقل الشيء الذى اريد رفعه او حمله ، فيجىء المجهود معادلا للمطلوب فأنجح .

وهكذا فى غير ذلك ، فى صغار الأمور وكبارها ، فلا تغشوا أنفسكم فان هذا شر ماتسيئون به اليها ، ولا تستهينوا بكلام تظنونه يذهب فى الهواء، فانه لا يذهب فى الهواء بل يتقرر فى ثرى النفوس و يرسخ فى العقائد و يستكن فى ضمير الفؤاد من حيث لا تشعرون ، واذا كان كل مرادكم ان تثيروا الشعور بالعزة القومية ، فان لهذا سبلا أخرى ، ولا خير على كل حال فى الفخر الأجوف .

وكان بين الشعراء رجل من الكويت — اذا كانت ذاكرتى لم تخنى — وشعره سخيف ولكن انشاده بديع وقد كان وهو يلقى قصيدته الطويلة — يغنى ويمثل ، وأشهد أن صوته صاف خالص كصوت الفضة ، وأن غناءه بارع وخال من التخنث والتطرى ، وأن تمثيله حسن مطابق للمعانى مؤد لها على وجه الاحكام ،

وتلاه شاعر نجدى قح أعوذ بالله من القائه ، فليته جاء قبل الكويتى ، ولكنه أبى الا أن يجيء قبل الطعام فكاد يصدنا عنه ويفتر رغبتنا فيه ، و يزهدنا فى الشعر والأدب والعرب ، بل فى الحياة نفسها فأعوذ بالله مرة أخرى وثانية وثالثة من القائه ، وسأظل أستعيذ بالله منه كلما ذكرته فانه يفسد على نومى و يسود العيش فى عينى ، ويغثى نفسى و يكرب صدرى ، وقد ضرست أسنانى لما سمعت صوته ، وأحسست كأن الحكة قد شاعت فى جلدى — أعنى الجرب والعياذ بالله مرة رابعة منهما أعنى الجرب والصوت — و إنى

لأوصى الحكومة الحجازية أن تقطع ألسنة الشعراء النجديين اذا كانت أصواتهم منكرة كهذا الصوت ، فان البكم خير الف مرة ، وهذا الصوت ـ اذا كان له مشبه ـ خليق أن يغرى الخلق بالفتنة والتمرد ويدفع الرعية الى الانتقاض والثورة .

وقمنا الى الطعام بعد هذا البلاء الشعرى ، وكانت ألوانه ـ أعنى الوان الطعام لا البلاء ـ مغرية ، وكانت الخراف الشهية فى الطشوت، تخايلنا ، فسألت : هل هى للزينة كما كانت فى مأدبة الكندرة أم للأكل ؟ فضحكوا وقالوا بل للاكل ، فالقيت السكين والشوكة ، وشمرت كمى ونهضت عن الكرسى وقلت لعبد من الواقفين

« ارفع هذه الصحون من أمامى وأفسح لذى القرنين ، فانى أراه لا يزال ذا قرنين على الرغم من الذبح والسلخ والشى والتحمير ـ هات عجل ، ياعبدالله ! » وليسامحنى الأمير ، فانى لا أحب المغالطة »

فلما فعل ـ أعنى العبد لا الأمير ـ دفعت يدى فى خاصرة الخروف فلم أكد أفعل حتى نبدت عن صدرى صرخة من الطبق العالى الذى يوقظ الموتى فى قبورهم ، واذا بى أدور على عقبى ، وذراعى فى الهواء وأصابعى مدلاة ، وفمى ينفخ ويقول « فو . فو . » من لسع النار التى فى خاصرة الخروف !

فبذمتى ليس هذا من الكرم فى شىء ! بحيثوننا أولا بهذا الشاعر النجدى ينغص عيشنا ويشعرنا غصص الموت فى حياتنا بل فى

شبابنا ـ فقد كنا جميعاً شباناً فى الحجاز حتى زكى باشا ـ ثم يثنون بهذه الخراف التى حشوا بطونها جمرا متقدا ، ويزعمون انهم يطعموننا ويكرموننا ؟ ؟ لماذا اذن كانت ألوان الطعام الأخرى لاتلسع ولا تحرق ؟ ؟ أليس من الواضح أن هذا تدبير مقصود ؟؟

ومال الأمير ـ بعد الطعام الى خيمته ليستريح ، وملنا نحن الى النخيل نحتمى فى ذراه من الشمس ، وارتمينا على الرمال وأشعلنا السجاير وذهبنا ندخن واذا بثلاثة من الجنود النجدية يجرون الينا واحد بعد الآخر ـ ويسألنا كل منهم بدوره

« معك شىء من العكس ؟ »

فلم أفهم ما العكس الذى يطلبون شيئاً منه ، وحسبتهم يعنون الدخان فأخرجت علبة السجاير وعرضتها عليهم فتناولوا منها وعادوا يسألون عن « العكس » هل معنا منه شىء ؟ فقلت لعله طعام أو شراب ، وأشرت الى خيمة المائدة وقلت

« هناك . لقد تركنا الخراف والله سليمة أو كالسليمة ، فعليكم بها ان كنتم تعنونها والأمر لله . أما اذا كان شرابا ما تطلبون فهذا هو الماء يجرى عند اقدامكم فانكفئوا عليه وعبوا فيه واكرعوا منه »

فمضوا عنى وهم يبتسمون وكأنى كنت اخاطبهم باللغة الأردية . وقد علمت بعد ذلك ان العكس معناه فى اصطلاحهم

الصورة ، وكان الباعث لهم على طلب الصور منا ان رياض افندى شحاته أعد نحو ألف صورة - فى حجم بطاقة البريد - لجلالة الملك ابن السعود وفرق اكثر ما معه فى وادى فاطمة ، فتوهموا ان كل مصرى مصور ورياض افندى أيضا ! وليتنى كنته ! اذن لاستغنيت عن هذا الكتاب ولما اصبحت أتجشم تعب التسطير والتحبير ونفقات الطبع والنشر .

ثم عدنا الى خيمة الاجتماع وكانت غاصة ، ولم يكن الأمير قد حضر ، فطافوا علينا باقداح القهوة فى قعورها رشفة ، فعدت الى الاجتماع وظلت استزيد حتى فر الساقى واختفى . ولما جاء الأمير استؤنفت الخطب ودعى زميلنا خير الدين افندى الزركلى الشاعر السورى فأنشد قصيدة حماسية هى كل ما خرجنا به فى يومنا - بل فى رحلتنا كلها - من الكلام الرصين الجيد ، فنهض أحد السامعين من البدو ، وقد طرب ، فخلع عليه سبحته ، وهم آخر أن يخلع عليه عباءته ، ولكن اخوانه - أعنى اخوان الزركلى - خافوا اذا توالت الخلع ان ينوء بحملها فصدوا الناس عنه وحموه - هذا الا . . . أعنى الخير .

وإنا لكذلك واذا بزكى باشا يدخل كالمدفع ، وصوته يسبقه ، ومن ورائه السيد عبد الوهاب نائب الحرم ، فصفق له الناس فوقف يعتذر فقال كلاما أرعبنا ، ذلك انه التفت الى الأمير وانطلق يقول إن أهل الحجاز وعمال الحكومة يزعمون أن الأمن شامل

ولكنه تبين أن هذا كذب ، ويرى من واجبه أن ينبه الأمير الى الحقيقة ويطلعه عليها ويصدقه فيها ، فقد كان مستلقياً فى ظل النخيل فسطا عليه لص وسرقه .

وهنا وثب الناس الى أرجلهم ساخطين مستنكرين ، وقلت لجارى لقد خولط الرجل ! أما كان يستطيع ان يسكت ؟ الا بد من ان يعلن ذلك على هذه الأملاء كلها ؟

ووجمنا ، ووددت لو أنى تأخرت ـ وادركت زكى باشا قبل أن يدخل ، لأحمله على الصمت وأصده عن الكلام ، غير أن ذهولنا لم يطل فقد اندفع زكى باشا يشرح الموضوع واذا كل مايعنيه ان السيد عبد الوهاب محدث ظريف وانه سرق وقته وأنساه الاجتماع والخطباء بحلاوة حديثه وقدرته على الافتنان فيه !

وقد عنيت بأن اذكر هذه الحادثة التافهة لأنى أريد أن أخص السيد عبد الوهاب بكلمة ، فانه بلا شك ابرع محدث وأظرف رجل عرفناه فى الحجاز ، وقد تعلم فى الآستانة واتقن التركية والفرنسية فضلا عن لغته العربية ، وعرف الأيام كما عرفها المتنبي ولكنه ظل مع ذلك رجلا عطوفا فيه رفق ورحمة ودماثة ومروءة ، وليس فى الحجاز من لا يأنس بمجلسه و يشتهى حديثه ، وهو على ظرفه وفكاهته كيس وقور ذو رأى انضجته السن والتجارب وفكر

سددته المعرفة والاطلاع . ولو شئت لأطلت ولكن بحسبه هذا مني

واشير هنا الى حادثة أخرى لها دلالتها ـ ذلك ان عميد وزراء الدول فى الحجاز هو الوزير الروسى ، وقد كنت احسبه صينيا فان به من أهل الصين مشابه ، وقد وقف يشكر للأمير دعوته هو وزملاءه الى هذه الوليمة فى الصحراء ، وكان يتكلم بالعربية أو بما يظنه لغة عربية ، ويرفع الشكر الى الأمير بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن زملائه ، ولم يطل فان من العسير أن يفيض المرء فى الكلام بلغة يحزرها على البديهة .

ولكن ممثل الحكومة البريطانية ـ القائم باعمال مفوضيتها فى جدة ـ لم يرضه أن يكون ممثل الروسيا هو عميد الهيأة السياسية والذى ينطق بلسان أعضائها مخافة أن يتوهم العرب ان الروسيا مقدمة على انجلترا ومفضلة عليها ، فاستأذن الأمير فى كلمة يلقيها ثم نهض فاعرب هو أيضا عن شكره للحفاوة التى لقيها والكرم الذى غمره ، وقد اشرت من قبل الى هذه المنافسة بين الروسيا وانجلترا هناك ، والحق انها كانت احيانا تبدو لنا مضحكة ، أو على الأصح ممتعة .

ولكل شىء آخر ، حتى الخطب والقصائد ، وقد تنفسنا الصعداء حين رأينا الأمير ينهض وقلنا هذا إيذان بالأوبة الى جدة ، والراحة

ولكن بين هذا كله شيئاً لا أحسبني أنساه ما حييت، فقد سار بنا بين الجند النظامية الى العراء، وهناك وقف الأمير واومأ الينا فدنونا منه ورأينا صفين من البدو النجديين ثيابهم شكول، وأكثرها زاه براق، وفي يسراهم البنادق وفي يمناهم السيوف مصلتة وبين الصفين أربعة يروحون ويجيئون وأمامهم عبد يضرب بالدف، وهو يطول و يقصر، ويتثنى ويتعوج، ويميل يمنة ويسرة ويقوم ويرقد ويتمرغ على التراب، والدف في يسراه، وفي اليمين عصا صغيرة ينقر بها، والأربعة وراءه يترنحون، والصفان، على الجانبين يتوثبان، والمسدسات والبنادق ينطلق منها الرصاص في الهواء، والسيوف تلمع، ومع ذلك كله غناء اوشدو أو تهزيج لا أدرى، بكلام اعترف سمو الأمير نفسه أنه لا يتبين ألفاظه، وقد اذكرني ما رأيت حلقات الذكر في مصر، ولكن الذاكرين في مصر يلهجون بأسماء الله أما هؤلاء فقيل لي ان الغرض من رقصهم بالسيوف والأسلحة والدفوف تحميس الناس ليخرجوا للقتال

قالوا، ولا موجب لهذا التحميس ولكنها عادة بدوية قديمة مثلوها لنا ليمتعونا برؤيتها، وكان الواحد من هؤلاء البدو ربما خلع عقاله و «حرامه» ورمى بهما في الهواء ورماهما برصاصة وتركهما يهبطان الى الأرض، وقيل لي في تفسير هذا، أنه

يخلع عليه الأمير جديدا عوضا عن القديم الذى اطلق فيه الرصاص ويبقى العقال ملقى على الأرض حتى يقول له الأمير ارفعه عنها وهذا عندهم وعد ـ غير قابل للاخلاف ـ بان يخلع عليه سواه

وظللنا هكذا لا أدرى كم ! وأحربنا أن لا نحس كر الوقت ومر الساعات ونحن نرى هذا المنظر الساحر ونسمع الرصاص ينطلق أمامنا وفوق رؤسنا ، ولا أكتم القارئ أن الخوف لم يفارقنى لحظة ، وانى لم أذهل عن نفسى ثانية واحدة ، واعترف انى كنت أخشى أن يصيبنى سوء ـ أعنى رصاصة وأشهد لنفسى بالأدب فقد كنت لا أزال كلما تنحى ممثل انجلترا ليفسح لى مكانا الى جانبه فى الصف الأول اؤكد له أنى أستطيع أن أرى من تحت إبطه ، وأنى لا أقبل فى حال من الأحوال أن أحاذيه أو أرفع نفسى الى مقامه ، فكان يشكر لى تواضعى ويؤكد لى انه سعيد بجيرتى ، وأنه معجب بذلاقة لسانى وقدرتى على الرطانة ، فكنت أقول له

« ياسيدى الوزير ، انى عربى الأصل فى الحقيقة ، وهذه البلاد بلادى فى الواقع ، فأنا لست هنا ضيفا ولايجوز لابن البلاد أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه »

واتراجع خطوة ، واجعله أمامى ، واتخذ منه ـ بهذه الحيلة ـ مجنا

دون الرصاص الذى اتقى أن يصيبنى ، وقد صارحته بالحقيقة ونحن راجعون وقلت له « إن انجلترا غنية بالرجال فهبك قتلت فان انجليزيا يروح وآخر يجىء ، وليس الذاهب بأفضل من الآتى ولكنه ليس فى مصر - ولا فى جزيرة العرب على مايظهر - سوى مازنى واحد ، وهذا غريب ، فقد كنت أتوقع أن يخرج لاستقبالى والحفاوة بى وفد من عشيرتى ، ولكنى لم أسمع ان واحدا من بنى مازن انحدر الى الحجاز لهذا الغرض ، وأسر اليك أنى أخشى ان يكون ابن السعود قد فتك بهم »

فدهش وقال لماذا ؟

فخفضت صوتى جدا ، وشببت عن الأرض لأهمس فى أذنه « ان قومى عفا الله عنهم - من أهل التخفيف »

قال « ماذا تعنى ؟ فانى لاأفهم »

قلت « اعنى انهم من ذوى المروءات »

وقال « وهل يفتك بهم ابن السعود لأنهم من ذوى المروءات؟ » قلت « إن ابن السعود يكره هذا الضرب من المروءة » قال كيف ؟ لماذا ؟ »

« قلت ان اللغويين أعداء قومى - الد اعدائهم — يسمون المروءة قطعا للطريق ، والتخفيف عن الناس سطوا عليهم ، وابن السعود وهابى أى على مذهب اللغويين — سوء تعبير او خطأ فى

الوصف كما ترى . واخشى ان يكون قد جر على قومى و بالا فهل لك فى حلفى ؟ »

قال « حلفك ؟ »

قلت « نعم . تحالفنى على ابن السعود . اذا ثبت انه اوقع بهم . »

فالتفت الى بسرعة وقال « أتتكلم جادا ؟ فلست اكتمك انى مستغرب حديثك وانى لا أكاد أفهم شيئاً ! »

وهنا أدركنا واحد فوضعت أصبعى على فمى ، ولكن « الواحد » لحنى فقال للوزير

« أنا واثق أن حديث المازنى قد حيرك »

فقال الوزير — أو القائم باعمال الوزير على الأصح — « هذا صحيح . لقد كاد يجرنى الى حرب ابن السعود ، من أجل قضية لا أفهمها »

فقال « الواحد » — « الم أقل لك ؟ فماذا كان يقول ؟ »

فتركتهما يتذاكران وارتددت الى زملائى فصاحوا بى

« ياأخى أين كنت ؟ »

قلت « لماذا ؟ الست أمامكم ؟ »

قالوا « إن الأمير قد تفضل ودعانا الى خيمته ليودعنا على

: نفراد ، ولنا ربع ساعة نبحث عنك »

قلت « حسناً فعلتم . تفضلوا . »

وسرت أمامهم الى الخيمة ثم تنحيت لزكى باشا فان شيبته أضوأ من شيبتى . وأنا رجل لايكابر فى الحق، فتلقانا الأمير ـ ومعه فؤاد بك حمزه مدير الشئون الخارجية ـ بالتأهيل والترحيب، وأعرب عن سروره بزيارتنا للحجاز و يقينه انها ستؤدى الى توثيق العلاقة بين الشعبين الشقيقين ،

فقال زكى باشا إن العادة تثبت من مرة واحدة فقال سموه انها لكذلك ، وانى لأرجو أن اراكم فى كل عام على الأقل مرة .

وذكر بعضنا المدينة وانه يحب زيارتها ، فقال سموه إن الأمر فى ذلك لكم ، فاذا شئتم أن تتخلفوا أياما أخرى فان الزيارة سهلة ، ولكنها تكون شاقة ومتعبة اذا أردتم أن تدركوا الباخرة التى تبارح جدة يوم السبت ، فاختاروا ماشئتم

فشكرنا له ظرفه وحسن مجاملته وكرمه واعتذرنا بان أعمالنا فى مصر لاتسمح لنا بطول التغيب ، ورجونا أن تتاح لنا فى العام المقبل فرصة العود الى مثل هذه الزيارة ، وأفضنا فى الاشادة بما شاهدناه من دلائل التقدم وامارات الاخلاص فى ترقية الأحوال وتحسين الشئون وقلنا، وقيل لنا كلام كثير نسيت أكثره. ثم

تفضل سمو الأمير فخرج معنا من الخيمة ليرسمنا رياض إفندى، حافين به .

ثم سلمنا وعدنا الى جدة. وكان هذا ختام الحفلات الرسمية

فى بيت العوينى

فى بيت العوينى ، عرفت العوينى ، أعنى أنى استطعت أن ألم بطرف من الصفات والخلال التى أعانته على التوفيق فى حياته ، وهو على ماعلمت من أسرة سورية وكانت له تجارة رابحة ، فلما قامت الثورة السورية أمدها بشبابه وماله وتدبيره ، وكان أشبه بزعيم محلى ، فقبض على طائفة من رجاله ، قال محدثى ـ والعهدة فى الرواية عليه ـ فأصبح يوما فاذا نساء الحى يصرخن ويولولون ويندبن ويصحن « يخرب بيتك ياعوينى »

فخيف أن يفضى ذلك الى اعتقال الباقين والى احباط التدبير كله ، فتولى العوينى الانفاق على السجناء وعلى أهليهم الطلقاء ـ أمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم الخ وأحكم أمره وسارت الأمور على خير مايرجى فى مثل هذه الأحوال ، وكانت الأسرات التى اضطر أن يعولها كثيرة وفقيرة ، فأرهقته واستنزفت موارده فلم يسعه الا أن يصفى تجارته ـ أو مابقى منها ـ وأن يرحل

فقصد الى الآستانة وفى مأموله أن يبدأ حياته من جديد .

ومكث هنالك شهوراً ثم الفى نفسه ينفق ولا يربح فاحتمل حقائبه ومضى الى جدة وأنشأ فيها وكالة لتاجر سورى كبير ، وظل كذلك ثلاث سنوات حتى استطاع أن يقف على قدميه وأن ينشىء لنفسه تجارة مستقلة .

وهو يستورد المتاجر بالجملة ويفرقها على التجار فاذا جاء يوم الجمعة أنقدوه اثمان ما باعهم ، وقد اخبرني محدثي — ولى به ثقة — أن متوسط مايجمعه من التجار فى كل يوم جمعة يبلغ أربعة آلاف جنيه ، لا أدرى كم يكون ربحه منها ، وقد ذكرت ذلك لأعين القارىء على تصور مبلغ النجاح الذى أحرزه والذى يستحق أضعافه ، لنشاطه ودؤوبه وكده ، وقد كنا نفتح عيوننا فى الصباح ونتثاءب ونتمطى على حين يكون هو قد لبس بذلته (الافرنجية) ولا ينقصه الا أن يضع على رأسه الحرام الحريرى الأبيض ، والعقال

ولولا وجودنا وكوننا ضيوفه لكان قد خرج الى عمله قبل ذلك بساعات ، ولكنه كان مضطراً أن يتأخر حتى يفطر معنا ، وكنت أعجب بلباقته وكياسته وحذقه فى حثنا على النهوض والافطار من غير أن يشعرنا أنه قلق على عمله وأنه يريد أن يخرج ليباشره ،

وكان العوينى يبدو لنا كأنه كل شىء : الحكومة والرعية جميعاً . فهو الذى يعهدون اليه فى تنظيم كل أمر ويكلون اليه

الاشراف عليه . و يعتدونه مسئولا عنه فما احتجنا الى شيء الا قلنا أين العويني ؟ ولا أرادت الحكومة شيئا إلا قالت : هاتوا العويني ، ولا ناقة له فى ذلك كله ولا جمل، ولكنه النشاط وحسن التدبير والسرعة الرائعة فى انجاز الأمور وحضور الذهن واتقاد الخاطر

وكان يساكنه شاب آخر فى مثل سنه أو أقل – بل هو أصغر على التحقيق – اسمه ابراهيم افندى شاكر حسبناه أول الأمر أخاه ثم عرفنا انه صديقه ووكيله . وهو حجازى صميم كان سكرتيرا خاصا للملك السابق على بن الحسين ، وابراهيم افندى كصاحبه العوينى فى النشاط والرقة ، ولكنه ساكن وادع الطائر طويل الصمت ، يمر بك كالنسيم الوانى ، والنظرة الى وجهه تنعش الروح وتحيي النفس . والجلوس معه يشيع فى صدرك الطمأنينة والاحساس بالراحة التامة . وهو مع سكونه دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يتأفف ولا يكون إلا مفتر الثغر .

وفى بيت العوينى أيضا كان من حظى ان عرفت خالد بك الحكيم ، وكان يلبس جبة وقفطانا ، وعلى رأسه الحرام والعقال ، وهو رجل ضخم عليه مهابة ووقار ، وفى عينه التماع عجيب ولحديثه سحر ، وهو سورى من كبار المجاهدين ، تخرج فى المدرسة الحربية فى الآستانة وخاض حروبا شتى فى أوربا وآسيا وافريقية – طرابلس – وكان مع جيش ابن السعود الذى فتح الحجاز ,

ويسمونه « الغطاس » لأنه يكون اليوم معك وتفترقان على ان تلتقيا غدا ، واذا به غدا فى الشام أو اليمن أو بمباى ، ولا يدرى سواه اى طريق سلك ، ولا علم لأحد بما كان ينوى ، وهو بكل بلد اعرف من أهله وأنفذ بصيرة فى حاضره ومستقبله ، والعشرة من أمثاله يعادلون أمة ، ولقد لقيته بعد ذلك فى مصر فما ازددت الا اكباراً له وايماناً به ، إكبارا لقوته الصامتة وجلده على الحياة وتواضعه المحبب واخلاصه وصراحته ، وايمانا بعظمة روحه

* * *

وفى بيت العوينى جاءتنا هدايا الأمير ، وكان صديق لنا قد أسر الى اننا سنتلقى هدية فسألته عنها أى شىء هى ؟ قال عباءة وعقال وما الى ذلك ، فقلت اذا كانت هذه هى الهدية فمرحبا بها وليعجلوا ، فسألنى « واذا كان هناك غيرها ؟ »

قلت « ماذا تعنى ؟ »

قال « اعنى ان من عادة العرب اذا حل بهم ضيف أن يهدوا ويهبوا ويصلوا »

قلت « ان من المعقول ان تكون هذه عادتهم . فان البدوى فى الحقيقة فقير معدم ، وطلبته الطعام والكسوة والمال ، فطبيعى أن يكرم العرب الضيف أى أن يطعموه ويكسوه ويصلوه ، ولكننا لسنا بدوا ـ وانى لأشتهى ان تكون لى عباءة وعقال ،

ولكن هذا ليس لأنى عار مفتقر الى الكسوة بل لأنى أعتد هذه الثياب قنية تستحق أن تدخر ،أما الصلة اى المال فبالله عليك الا ماصرفتهم عنه ، ثلا يحرجونا ويحرجوا أنفسهم، فانى لا أرضى أن آخذ مالا لا أستحقه ثم انى استحى أن أرد عطاء أمير ، ولكنى سأكون مضطرا أن أرده لأنه لا يسعنى الا أن أعده فى مثل هذا الموقف رشوة أربأ بنفسى و بالحكومة السعودية عنها ، وقد بالغت الحكومة فى إكرامنا وانفقت على رحلتنا هذه بضعة آلاف من الجنيهات ودفعت عنا حتى أجور التلغرافات التى بعثنا بها الى صحفنا ، وهذا كله فوق الكفاية ، ثم إن ماشاهدناه كان له وقع جميل فى نفوسنا فلا يفسدوا هذا الوقع بالرشوة ، وأنا مقترح عليك بديلا منها : فانى أشتهى بلح المدينة ، المشهور ، فاذا كان يسعهم أن يخاطبوا المدينة بالتلفون لترسل الينا فى ينبع قليلا من البلح ، فان هذا يكون خيرا من كل مال . »

وقد استشار صاحبى زميلا أخر لى فنصح له بمثل ذلك ، فعاد اليهم صاحبنا وحملهم على الامتناع عن وصلنا بالمال ، وعلى الاكتفاء بالكسوة العربية والبلح ـ والكسوة عبارة عن معطف مصنوع من الكشمير وعباءة سميكة من الصوف الجيد محلاة ومزركشة بما لاأدرى وعقال من الحرير مفضض وحرام من الكشمير ، وقطعة من السكرودة . وقد احتجت ان أقصر هذه الثياب لأستطيع لبسها والانتفاع بها .

وفى ينبع ونحن عائدون ابى الأمير الا أن يستقبلنا كأنا كنا مثله امراء - فى سرادق عظيم القيت فيه الخطب وأنشدت القصائد . ثم تغذينا واكلنا خرافا حقيقية لاشك فيها ولا فى رؤوسها ولا فى امخاخها ، وبلغ من حفاوتهم بنا أن كان كبار القوم هم الذين يتولون خدمتنا على الطعام .

ثم عدنا الى الباخرة حيث وجدنا بلح المدينه فى « صفائح » بعددنا ، بل باكثر من عددنا ، ففرقنا مازاد واحتفظنا بانصبتنا . ورسونا فى الطور ساعات وطفنا به وشاهدنا مافيه من البنى والمعدات الوافية ، ثم عدنا بسلامة الله .

ولكن رحلتنا ونحن عائدون كانت فاترة فقد كان ينقصنا نبيه بك العظمة وخير الدين افندى الزركلى . فقد تخلفا فى جدة

خاتمة

العرب أمتان فى أمة ، أو هم على الأصح ثلاث أمم : واحدة تعيش فى الحواضر على نحو ماتعيش أمثالها فى كل بلاد العالم وهذه خليط من شعوب شتى ، فيها المصرى والسورى والفارسى والهندى والجاوى الخ ، وقد لقيت فى جدة ومكة كثيرين من التجار والأعيان علمت منهم أن أصولهم مصرية وأن لبعضهم فى مصر أقارب ومصالح وأملاك . وحدثنى كبير فى الحكومة السعودية أنه عنى بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالى فعرف نحو مائتى أسرة مصرية استوطنت الحجاز واستقرت فيه من زمن بعيد أو قريب ، ولكن الشبان المصريين هناك قليلون ، وهم فى حكومة الحجاز يعدون على الأصابع ، ولهذا عدة أسباب منها أن السوريين ، وهم أقرب الى بلاد العرب وأوثق بها صلة — زاحموهم فغلبوهم ، وللسوريين آمال قومية يعتمدون فى تحقيقها — فى جملة مايعتمدون عليه — على السعوديين ، وقد انتفع السعوديون بالمهندسين والضباط وغيرهم ممن تلقوا علومهم فى معاهد الآستانة .

وشردتهم عن سوريا الأحوال السياسية ، ودفعت بهم مساعيهم القومية الى الصحراء . وبين السوريين من ليسوا من الأوساط العاديين ، وانما هم من ذوى الصلابة وأولى العزم والقوة فلا بدع اذا غلبوا المصريين القليلين الذين ذهبوا فى السنوات الأخيرة فلم يجدوا ما كانوا يأملون من الغنى السريع أو الرزق الوافر أو غير ذلك فعاد أكثرهم ، ومصر أرقى حضارة من سورية ، والترف فيها أوفر والحياة فيها أنعم ، ولهذا كان السورى لايحس فى الحجاز انه نزل عن شيء من مظاهر حياته على خلاف المصرى الذى لايجد هناك ما خلفه فى وطنه من المناعم والملاهى ، على انى لست فى مقام التقصى للأسباب التى أدت الى ضعف العنصر المصرى فى الحكومة الحجازية وانما أردت بما ذكرت أن ابين ان لهذا اسبابا معقولة . والأمة الثانية : القبائل المقيمة على المياه الثابتة وهذه تشتغل بالزراعة الى حـــد ما ، وبالرعى وبقليل من الصناعات الساذجة ، ومواطن هذه القبائل ثابتة . ومحلاتها وعشائرها وبطونها وأفخاذها تكاد تكون مضبوطة الحدود على العموم ـ ومن هذه تخرج امة ثالثة هم البدو الرحل الذين لايستقرون فى مكان ولا يزالون يتحولون من هنا الى هناك

وقد أدرك ابن السعود بفطرته الزكية أن هذه البداوة هى آفة الأمة العربية وعلمته التجارب ان البدو لاخير فيهم فى حرب ولا فى سلم .

فهم فى الحرب لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقعة السلاح أو صوت الرصاص حتى ينفضوا أيديهم من القتال ويذهبوا يعدون وراء الجمال وما اليها ليغنموها ، ومن أجل هذا كان يعتمد فى حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو . وكان يقدم البدو فى المعارك ويضع جيشه النظامى وراءهم ليمنع البدو أن يفروا وراء المغانم والأسلاب قبل أن تنتهى المعركة . أما فى السلم فهم عالة عليه وعلى حكومته لأنهم لا يحسنون صناعة أو زراعة . ومادام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها الى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق أن يستقر فى مكان . ولهذا فكر فى تحضيرهم واخراجهم من هذه البداوة فانتقى لهم المواقع التى يكون فيها الماء وحفر لهم الآبار وأوسعها أو أصلحها وألزمهم أن يبيعوا خيلهم أو جمالهم وأن يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له ان يجعل منهم أمة وأن ينظم أمورهم وان يقيم الحكم فيهم على قواعده الصحيحة وان يعلمهم و يثقفهم . وتسمى هذه المواقع التى اختارها لهم وألزمهم الاقامة بها والعمل فيها « الهجر » بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة ، وذاك أعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها

وعلى هذا النحو العملى يحل ابن السعود مشاكله العديدة ، فالحجاز مثلا ـ على حضارته نسبيا ـ صحراء جرداء ، والماء اكبر ما

يحتاج اليه وأول ما ينقصه ، وقد كانت فيه آبار وعيون كثيرة هدمها الأتراك وخربها الأشراف ـ كل بدوره ـ وكانت قرب جدة بئر الوزيرية وهذه وحدها كانت تكفى جده ، وقد ذهبت معالمها ودرست آثارها ولذلك جاءت الحكومة لينبع وجدة بآلات لتقطير مياه البحر واشترت اخيرا آلة كهذه لجدة تقطر فى اليوم مائة وخمسين طنا من الماء ، وأصلحت الصهاريج التى تخزن بها مياه الأمطار ، ومضت تجدد الآبار الدارسة وتكشف عن العيون التى سددت أو خربت ووجدت ان الآبار قليلة الغناء لأنها تجف وتنشف فى بعض الفصول فاتخذت الآبار الارتوازية وجلبت الآلات لاستنباط الماء من جوف الأرض ، ومما يذكر فى هذا الصدد أنها استدعت اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع التى يحسن اتخاذ الآبار الارتوازية فيها . غير أن معداتهما لم تكن كافية ، فعادا ، وقد اوصت الحكومة السعودية باستدعاء اثنين من المهندسين الغربيين والمرجح أن يكون اختيارهما ممن لهم خبرة بالجزائر لتشابه طبيعة البلدين ، وعملت الحكومة على اصلاح عين زبيدة بانشاء خزان ومد أنابيب ، وهى تبنى خزانا كبيراً آخر لجمع مياه المطر يسع مائة الف طن ، وموقعه لا يتطلب نفقات كبيرة لأنها اختارته فى مكان تحيط به الجبال من ثلاث جهات فالحاجة

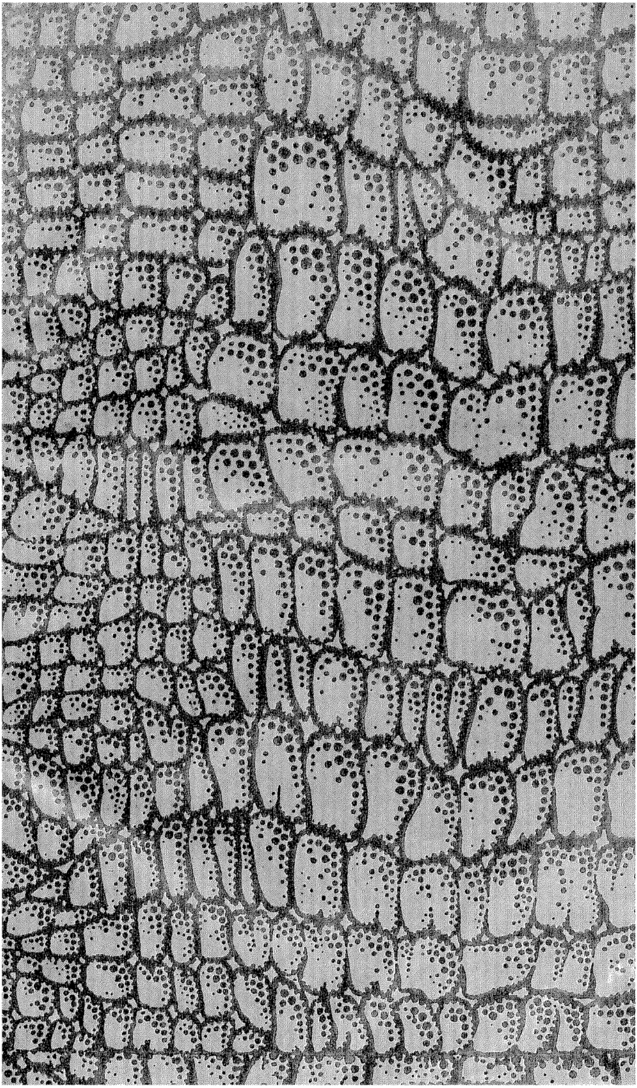

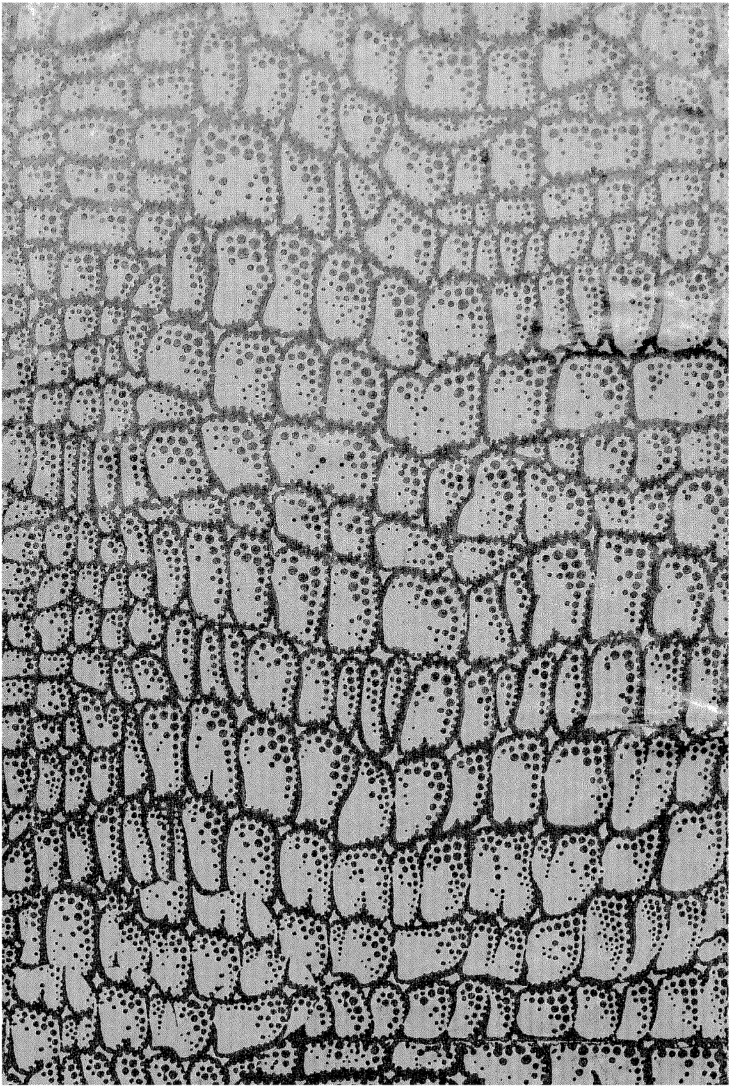

Bibliotheca Alexandrina
03385552